BALAGH
Journal of Islamic and Humanities Studies
Vol 3 / No 2 – Jun 1444 / 2023
ISSN: 2791-6561
Received: 14.06.2023 | Accepted: 11.12.2023 | DOI: 10.5281/zenodo.10349683 0000-0003-4657-6972

معوقات النهوض العلمي في العالم الإسلامي من منظور تاريخي

Obstacles To Scientific Advancement in The Islamic World From A Historical Perspective

حمدي شاهين*

Hamdi Shahin

ملخص

تبحث هذه الدراسة قضية النهوض العلمي في العالم الإسلامي، وحتميته لأمة أمرت بالعلم، وضربت فيه بسهم وافر على امتداد تاريخها، ثم أحاطت بها أسباب التخلف والضمور، وهي أسباب لكثير منها جذوره التاريخية، يعود بعضها إلى اختلال داخلي، ويعود بعضها الآخر إلى أسباب مفروضة عليها من أعدائها، ومن الطبيعي لقول بأن تجاوز هذه الهوة يستوجب تعرف مظاهرها، واستقصاء أهم أسبابها، والسعي لتجاوزها، وامتلاك شروط النهوض وأدواته.. ويتم تناول ذلك كله من منظور تاريخي تحليلي.

الكلمات المفتاحية: العالم الإسلامي، النهضة العلمية، منظور تاريخي، معوقات النهضة

Abstract: This study examines the issue of scientific advancement in the Islamic world, and its inevitability for a nation that commanded knowledge, and was struck in it by an abundant arrow throughout its history, and then surrounded by causes of underdevelopment and atrophy, many of them have historical roots, some of which are reasons due to internal imbalance, and others due to reasons imposed on it by its enemies, and it is natural To say that overcoming this chasm requires knowing its manifestations, investigating its most important causes, striving to overcome it, and possessing the conditions and tools for advancement.. All of this is dealt with from a historical and analytical perspective.

Keywords: Islamic world, scientific renaissance, historical perspective, obstacles to advancement.

* Prof. Dr. Fatih Sultan Mehmet Foundation University. Department of Islamic History. ORCID: 0000-0003-4657-6972 E-Mail: hashaheen2000@gmail.com

أهمية البحث:

يعد تحقيق النهوض العلمي في عصرنا مدخلاً حقيقيًا لتحقيق الاستقلال الحضاري، ومتأثرًا بأجوائه ومعطياته. كما أنه لا يمكن تحقيق تنمية شاملة تعتمد على الإنسان الحر المتسق مع هويته الحضارية، العقدية والقيمية، بينما يعاني ذلك الإنسان مشاعر متكاثفة من الدونية العلمية، والعجز المعرفي، ويرسف في أغلال مفروضة عليه تستهدف إبقاءه في تلك الدائرة المحكمة من العجز والدونية تجاه الآخر، في حين تتزايد الهوة بينهما.. ولذا فإن بحث أسباب التخلف العلمي في ديار المسلمين؛ وإمكانية معالجتها، وتحقيق نهضة عقلية وعلمية؛ هي المدخل الضروري للتغيير واقتحام العقبة.

مشكلة البحث:

تتضح إشكالية البحث من عمق الهوة العلمية التي تعيشها بلدان العالم الإسلامي، مقارنة ببلدان العالم المتقدم التي تسعى بدورها لضمان بقاء الأول في مكانه، حتى يتسنى لها استمرار السيطرة على موارده، ومنعه من أسباب القوة والمنعة، بالنظر إلى تخوفات تاريخية تمتد من عصور الفتح الإسلامي، وتمر بعقود من الحروب الصليبية، وتستمر حتى زمن الاستعمار الغربي العسكري، وتواصله في صوره السياسية والاقتصادية والثقافية.. ولا شك أن الغرب المتحكم قد أفاد من عوامل ضعف حقيقية حكمت العقلية والإدارة الإسلامية في تجربتها التاريخية، وأتاحت للآخر إمكانية استغلالها.

أسئلة البحث:

ويسعى هذا البحث إلى الإجابة عن الأسئلة الآتية:

١- ما هي أبرز تجليات ظاهرة التخلف العلمي في العالم الإسلامي؟

٢- ما هي أهم أسباب حدوثه واستمراره على مدى عقود من الزمن؟

٣- ما هي شروط تحقيق نهوض علمي في العالم الإسلامي؟

منهج البحث:

اتبعت المنهج الوصفي في رصد ظاهرة التخلف العلمي في العالم الإسلامي، والمنهج التاريخي التحليلي في تحليل أسباب الظاهرة وطرق علاجها.

الدراسات السابقة:

قدمت المصادر التاريخية القديمة مساعدة في بيان الأسباب الثقافية القديمة التي مهدت للتخلف العلمي، وأسست له، كما قدمت الدراسات التاريخية الحديثة والمعاصرة والوثائق والتقارير العلمية والمقالات رؤية جديدة بالتحليل في دراسة الظاهرة وعلاجها.

هيكل البحث:

ينبني هذا البحث على مقدمة ومبحثين، اهتمت المقدمة برصد مظاهر التخلف العلمي في العالم الإسلامي، وعُني المبحث الأول بالمعوقات الفكرية للنهضة، بينما عُني المبحث الثاني ببيان المعوقات السياسية والاجتماعية للنهضة.

مقدمة: من مظاهر التخلف العلمي في العالم الإسلامي:

تتعدد المظاهر الدالة على عمق الهوة العلمية التي تردى فيها العالم الإسلامي منذ عقود من الزمن، وآلت إلى ما يعانيه اليوم، بعدما عاش قرونًا من الأَلَق العلمي والحضاري الذي تأسس على القيم الأصيلة لبنائه العقدي، وامتد عطاؤه الثري ليشمل عالم تلك القرون.

فالأمة التي خاطبها القرآن الكريم بأول نداء إلهي: "اقرأ"؛ بلغت فيها نسبة الأمية نحو ٤٠٪ في صفوف الذكور و٦٥٪ في صفوف الإناث وفق تقرير المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (إيسيسكو) سنة ٢٠١٤[1]. أما في العالم العربي فقد ذكرت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (ألكسو)، إن نسبة الأمية فيه تجاوزت ١٩٪، أي أن عدد الأميين به يفوق ٩٦ مليونا[٢].

وذهبت بعض التقارير المنسوبة إلى عدد من المراكز البحثية إلى أن متوسط القراءة في العالم العربي ربع صفحة للفرد سنويا، بينما تصل معدلات القراءة سنويًا للفرد في أميركا إلى ١١ كتابا، وتصل في بريطانيا إلى

---

[1] راجع تقرير موقع الجزيرة الإخباري: "**نصف سكان العالم الإسلامي أميون**" على الرابط الآتي وتم الاطلاع عليه في ٢٠٢٢/١١/٩: **https://cutt.us/tw4ar** ،

[٢] تقرير موقع الجزيرة الإخباري وعنوانه "**أكثر من ٩٦ مليون أمي بالوطن العربي**" على الرابط: https://cutt.us/G5Clw

سبعة كتب[٣]. وقد دفعت تلك الأرقام بعض الباحثين إلى الشك في صدقيتها، وأكد أنه استقصى ما تنسب إليه من مصادر فلم يجد نسبة منها صحيحة[٤].

وإذا نظرنا إلى الأوضاع في جامعاتنا فإن هناك ١٤ جامعة فقط تنتمي إلى الدول الأعضاء في منظمة التعاون الإسلامي في قائمة أفضل ٥٠٠ جامعة في العالم- ضمن تصنيف التايمز للجامعات العالمية ٢٠٢١ – أما في تاريخ جوائز نوبل التي من المفترض أن تعطى لأكثر العلماء تميزًا في مجاله؛ فإن نصيب العالم الإسلامي منها في مجال العلوم ثلاث جوائز[٥].

وفي دائرة البحث العلمي والتطوير فإن البيانات المتاحة سنة ٢٠١٦ تشير إلى أن نسبة إنفاق الدول الأعضاء في منظمة التعاون الإسلامي على البحوث والتطوير تبلغ 37 .0 ٪ من إجمالي الناتج المحلي لهذه الدول، وهو أقل بكثير من المتوسط العالمي البالغ 1.75%[٦]، أما في العالم العربي فلم يتجاوز معدل الإنفاق القومي على البحث العلمي سنة ٢٠٢٠ في الدول العربية قاطبة ٠,٧٢ %، بينما بلغ في إسرائيل ٥,٤٤ %[٧].

---

[٣] دراسة على موقع الجزيرة الإخباري عنوانها "**العربي لا يقرأ سوى ربع صفحة سنويًا**" على الرابط: **https://cutt.us/AZ3YO**

[٤] Leah Caldwell, **The Arab Reader and the Myth of Six Minutes**" مقال منشور على الرابط الآتي: http://www.pcp.ps/article/156/The-Arab-Reader-and-the-Myth-of-Six-Minutes وقد اطلعت عليه في ٢٠٢٢/١١/٩

[٥] حصل العالم الباكستاني الدكتور محمد عبد السلام في سنة ١٩٧٩ على جائزة نوبل في مجال الفيزياء، كما مُنح العالم المصري الدكتور أحمد زويل في سنة١٩٩٩ جائزة نوبل في الفيزياء، وفي مجال الكيمياء حصل الدكتور عزيز سنجار من تركيا على جائزة نوبل سنة ٢٠٠٥.

[٦] مركز الأبحاث الإحصائية والاقتصادية والاجتماعية والتدريب التابع لمنظمة التعاون الإسلامي (sesric): **التعليم والتنمية العلمية في الدول الأعضاء في منظمة التعاون الإسلامي ٢٠١٦** ص ٥٢

[٧] راجع تقريرًا عنوانه "**الإنفاق على البحث والتطوير % من إجمالي الناتج المحلي**"، منشورًا على موقع البنك الدولي، تم الاطلاع عليه في ١٤/ ١١/ ٢٠٢٢م على الرابط الآتي:
https://data.albankaldawli.org/indicator/GB.XPD.RSDV.GD.ZS

ووفقا للإحصاءات الصادرة عن المنظمة العالمية للملكية الفكرية WIPO في عام ٢٠١٤ يصل العدد الإجمالي لطلبات براءات الاختراع في جميع أنحاء العالم نحو ٢٠ .٦٨ مليون، بينما بلغ في دول منظمة التعاون الإسلامي ٧٨١ .٤٦٠ براءة اختراع، أي نحو ٧٤ .١٪ منها [٨].

ويتراوح عدد مستخدمي الإنترنت بين ٣ لكل ألف فرد في السودان، و٣١٣ لكل ألف في الإمارات العربية المتحدة، وأقل من ٥٠ مستخدماً لكل ألف في أحد عشر بلدًا عربيًا[٩].

ولا سبيل لتجاوز تلك الهوة العلمية إلا بإحداث نهوض علمي شامل يعالج أسباب التخلف والعجز، ويأخذ بأسباب الانبعاث الحضاري والقوة العلمية، في زمن لا يعترف إلا بالأقوياء في شتى مجالات الحياة.

ويمكن التمييز بين مجموعتين من أسباب التخلف العلمي، يعود أولها إلى عوامل داخلية، فكرية واجتماعية، وثيقة الصلة بالفهم الصحيح للإسلام على مدى تاريخه، ومدى حصافة التعامل مع التراث الإسلامي، بينما تتصل الثانية بالسياسات المعاصرة والعوامل الخارجية المفروضة على الأمة من أعدائها، ومن الموالين لهم فكريًا من أبنائها.

المبحث الأول: المعوقات الفكرية للنهضة العلمية

أ) اختلال التوازن بين العناية بالعلوم النظرية والتجريبية العملية:

ومما يسترعي النظر تأخر المسلمين في العلوم التجريبية أو العملية في القرون الأخيرة، مقارنة بعنايتهم بعلوم الدين التقليدية من تفسير وحديث وفقه، وعلم كلام. وكان لذلك تداعيات مهمة، إذ جعلت من الحتمي طلب تلك العلوم من الغرب الذي قطع أشواطًا بعيدة في ذلك المضمار، بما يعني حتمية الاستجابة – بدرجة أو أخرى – مع الإملاءات والشروط المفروضة منه، فمن نافلة القول أن الدول العظمى لا تعطي ما تملكه مجانًا لدول طالما كانت ضمن مستعمراتها وأملاكها.

ففي القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين/ الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين لا نكاد نجد من العلماء المتقدمين في هذه العلوم جملة معتبرة أو أفرادًا يُشار إليهم في تخصصاتهم، صحيح أن التأخر العلمي كان عامًّا في العلوم كلها، وأن العلوم الدينية المشار إليها كانت تعاني الجمود وتفتقر إلى الاجتهاد والتجديد، لكن إهمال العلوم التجريبية كان أشد، وكانت نتائجه شديدة الضرر على الأمة حتى يومنا هذا.

---

[٨] مركز الأبحاث الإحصائية والاقتصادية... (SESRIC): مرجع سابق ص ٥٩

[٩] اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغربي آسيا (الإسكوا): **تقرير السكان والتنمية العدد الثالث الهجرة الدولية والتنمية في المنطقة العربية: التحديات والفرص**، (الأمم المتحدة، نيويورك، سنة ٢٠٠٧)، ص ٣١

ومن ذلك أنه في سنة ١١٦١هـ/ ١٧٤٨م أرسلت الدَّولة العثمانية والياً على مصر، هو أحمد باشا المعروف بكُور وزير[١٠]، وكانت له بالعلوم الرِّياضية، فلما وصل إلى مصر واستقر بالقلعة؛ قابله صدور العلماء في ذلك الوقت، ومنهم الشَّيخ عبد الله الشَّبراوي، شيخ الجامع الأزهر، ، فوجد فيهم إحجامًا عن الرياضيات، فلما كلم في ذلك الشَّيخ الشَّبراوي اعتذر إليه شيخ الأزهر بأن " غالب أهل الأزهر لا يشتغلون بشيء من العلوم الرياضية إلا بقدر الحاجة الموصلة إلى علم الفرائض والمواريث"، واحتج بأنه من فروض الكفاية؛ إذا قام به البعض سقط عن الباقين، وهذه العلوم تحتاج إلى لوازم وشروط وآلات وصناعات... وأهل الأزهر بخلاف ذلك، غالبهم فقراء، واخلاط مجتمعة من القرى والآفاق، فيندر فيهم القابلية لذلك". وانتهى الأمر بترشيح والد الجبرتي المؤرخ، وكان عالماً بالرياضيات، فأخذ يتردَّد على الوالي يومين في الأسبوع، فَسُرَّ به الوالي ومدَحه قائلاً: "لو لم أغنم من مصر إلا اجتماعي بهذا الأستاذ لكفاني".. وكان الشيخ الشبراوي كلما تلاقى مع الجبرتي الوالد يقول له: "سترك الله كما سترتنا عند هذا الباشا، فإنه لولا وجودك كنا جميعًا عنده حميرًا"[١١]!

وفي سنة ١٣٠٥هـ/١٨٧٧م أُرسل استفتاء إلى شيخ الأزهر محمد الإنبابي عن مدى جواز تعلم المسلمين العلوم الرياضية والطبيعيات والهيئة والكيمياء. وقد أجاب الشيخ بأنه يجوز تعلم العلوم الرياضية وعلم الطب والطبيعيات، أما الهيئة (الفلك) فلا يجوز.. كأن هذه العلوم لم يكن للمسلمين عهد بها، ولم يكونوا من مخترعيها، وذوي التفوق فيها [١٢].

هذا القصور لم يبدأ في التاريخ المذكور، بل حتى العصور الزاهية تستطيع أن تجد في الفقه والحديث أضعاف من برعوا في الفلك والرياضيات والطب والهندسة، ومن يقرأ تراجم علماء المائة الثامنة أو التاسعة مثلاً ستتأكد عنده النتيجة السابقة[١٣].

---

[١٠]لقب بذلك لحول كان في عينه، وقد ولي مصر ما بين سنتي ١١٦١ – ١١٦٣هـ)

[١١] الجبرتي: **تاريخ عجائب الآثار** ١/٢٧٦-٢٧٨

[١٢]أحمد أمين: **زعماء الإصلاح في العصر الحديث**، (دار الكتاب العربي، بيروت، (د. ت)، ص ٧م، أحمد منير مرسي: **التربية الإسلامية أصولها وتطورها في البلاد العربية**، (عالم الكتب سنة ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م)، ص ٤٦٨

[١٣]راجع مثلاً ابن حجر العسقلاني: **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**، (دائرة المعارف العثمانية – حيدر آباد، ١٩٩٣م)، السخاوي: **الضوء اللامع لأهل القرن التاسع**، (دار الجبل – بيروت، ط١، ١٩٩٢)، الذهبي: **معجم شيوخ الذهبي**، تحقيق روحية عبد الرحمن السيوفي، (دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٠).

ولهذا جذوره عند كبار علمائنا الذين نظروا إلى العلوم الطبيعية على أنها أقل رتبة ومكانة من علوم الشريعة، فضلاً عن الامتيازات المادية التي كان يضمنها علماء الشريعة وتلاميذهم من وظائف مرموقة، ومخصصات مالية موفورة ضمنتها الأوقاف الزاخرة التي أوقفها أصحابه قربة لله لطلاب العلوم الدينية وعلمائها.

فأبو حامد الغزالي مثلاً – وهو من هو علمًا وأثرًا– يقرر سوء ظن معاصريه بالطبيعيات والرياضيات [١٤]. ويذكر أهمية علم الطب، وأنه لا غنى عنه لحفظ الأبدان التي لا يمكن عبادة الله إلا بها[١٥]، ولكن الطب أدنى مرتبة عنده من الفقه، حيث نفى الغزالي عن نفسه شبهة الظن أنه يسوي بينهما، وقال: "حاشا لله أن أسوي بين العلمين في الشرف والرتبة"[١٦]، فإن طب القلوب والأرواح؛ المتوصل بالإنسان إلى الجنة لا يقارن بطب الأجساد "المعرضة بالضرورة للفساد في أقرب الآماد؟"[١٧].

---

[١٤] يبدو أن كثيرًا ممن برعوا فيها في عصره كانوا فلاسفة ماديين، أو ممن تأثروا بهم بحسب وصف ابن خلدون للطبيعيين فقد كانوا هم "المقتصرين "على إثبات الأجسام خاصّة، المعرضين عن النّقل والعقل، المعتقدين أنّه ليس وراء الجسم في حكمة الله شيء" (**تاريخ ابن خلدون**، تحقيق خليل شحاتة، (دار الفكر، بيروت، ط١، سنة ١٩٨١م)، ٧٠٩/١، أما الغزالي فيصف العلوم الطبيعية قائلاً: "واما الطبيعيات فالحق فيها مشوب بالباطل والصواب فيها مشتبه بالخطأ، فلا يمكن الحكم عليها بغالب او مغلوب (الغزالي، **مقاصد الفلاسفة** ، تحقيق سليمان دنيا، (دار المعارف القاهرة، ١٩٦١)، ص ٣٢، وأما الرياضيات فيصفها بأنها "أمور برهانية"، لا سبيل إلى جحودها واللجاج فيها، لكن نولد منها آفتان: الأولى أن الإعجاب بها يقود إلى الإقرار لأهلها بالفضل والعقل، فإذا رأى الناس كفرهم وتهاونهم بالشرع قالوا: "لو كان الدين حقاً لما اختفى على هؤلاء مع تدقيقهم في هذا العلم!..... فهذه آفة عظيمة لأجلها يجب زجر كل من يخوض في تلك العلوم .... فقلَّ من يخوض فيها إلا وينخلع من الدين، وينحل عن رأسه لجام التقوى"، أما الآفة الثانية: فنشأت من صديق للإسلام جاهل، ظن أن الدين ينبغي أن ينصر بإنكار كل علم منسوب إلى هؤلاء المتشككين أو المعطلين، مما أدى إلى الضد من ذلك، حيث رأى مخالفوهم دقة برهان الرياضيين، وتعصب هؤلاء ضدهم فاعتقد أن الإسلام مبني على الجهل؛ وإنكار البرهان القاطع، فازداد لأهلها حبًا، وللإسلام بغضًا (**المنقذ من الضلال**، تحقيق د. عبد الحليم محمود، (نشر دار الكنب الحديثة، القاهرة)، ص ١٤٨–١٥٠، وهو مع تعلقه بسد ذرائع هؤلاء الجهال – عن طريق "زجر من يخوض في تلك العلوم" – يجنح إلى العدل في النظر إليها، ويرى أنها من علوم الكفاية التي يجب على الأمة في مجموعها القيام بها، وتأثم إن ضيعتها. راجع **فاتحة العلوم**، (المطبعة الحسينية، القاهرة، ط١، سنة ١٣٢٢هـ)، ص ٣٨، ويقول: "ولقد عظم على الدين جناية من ظن أن الإسلام يُنصر بإنكار هذه العلوم، وليس في الشرع تعرض لهذه العلوم بالنفي والإثبات، ولا في هذه العلوم تعرض للأمور الدينية" (المنقذ من الضلال ص ١٣٩–١٤٠).

[١٥] الغزالي: المنقذ من الضلال ص ٤٤

[١٦] الغزالي: فاتحة العلوم ص ٤٥

[١٧] **إحياء علوم الدين**، (دار المعرفة، بيروت، (د. ت)، ٤/١

وصحيح أن الشرع –بحسب رأي الغزالي– لم يتعرض لهذه العلوم بالنفي أو الإثبات، أعني النهي أو الإيجاب، لكنه لفت الانتباه إلى أهميتها في أهم أبواب الدين، وهو باب الاعتقاد، وفي أهم جوانب الاعتقاد وهو إثبات وجود الخالق وتوحيده، ومن ذلك قوله تعالى (اَلَمْ تَرَ اَنَّ اللّٰهَ اَنْزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَاَخْرَجْنَا بِهٖ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفاً اَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَّحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ اَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ۞ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَآبِّ وَالْاَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ اَلْوَانُهٗ كَذٰلِكَ اِنَّمَا يَخْشَى اللّٰهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمٰٓؤُا اِنَّ اللّٰهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ)سورة فاطر: ٢٧ – ٢٨، وقد بلغ عدد الآيات القرآنية التي تحض الإنسان على النظر في الكون ما يربو على (٧٥٠) آية[١٨].

وقد شغلت قضية المفاضلة بين العلوم، وأيها أشرف مكانة كثيرًا من علمائنا في العصور الماضية، ولو أنهم اقتصروا على بيان فروض العلم العينية التي لا يسع المسلم جهلها في دينه، وسوَّوا بين بقية العلوم الكفائية التي تجب على الأمة في مجموعها، مع التنبيه على أولوية ما يعظم احتياج الأمة إليه؛ لكان أسلم وأولى، لكن أصحاب كل علم فضلوه على بقية العلوم، وانشغلوا ببيان مزاياه، فزلت بهم الأقدام، وطاشت الرؤى، وجنت الأمة الخبال..

ومن ذلك أن العناية الفائقة بعلم الفقه مثلاً استحوذت على كثير من ذوي العقول النابهة، وقد حققوا بالفعل إنجازات كبيرة في تاريخ العلوم، غير أنه بمضي الزمن ندر الاجتهاد في الجديد مما يطرأ منها، فانشغل كثيرون ممن تلاهم بتشقيق مسائله، واجتروا ما قاله السابقون على أنساق متعددة لا تقدم جديدًا، وطفقوا يكتبون الحواشي والشروح على كتبهم التي ربما تزيدها غموضًا، وتحتاج بدورها إلى شروح، واكتفوا بدعوى شرف العلم عن الاجتهاد فيما يجد من قضاياه، بل تنادوا بإغلاق باب الاجتهاد فيه. فكانوا كما قال كعب بن زهير بن أبي سلمى:

ما أَرانا نَقولُ إِلّا رَجيعًا وَمُعاداً مِن قَولِنا مَكرورًا

وأمعنوا في فرضيات لم تقع، في حين تركوا الاجتهاد فيما وقع فعلاً، فخالفوا منهج الأثبات من علماء الصحابة الذيم كرهوا الانشغال بما لم يقع عما وقع بالفعل، من ذلك قول عمر بن الخطاب t:" أحرّج عليكم ان تسألوا عما لم يكن، فان لنا فيما كان شغلاً"[١٩]، قول ابن عمر t:" لا تسألوا عما لم يكن، فاني سمعت

---

[١٨] بحسب إحصاء د. زغلول النجار: **مشكلة التخلف العلمي في العالم الإسلامي**، مقال منشور على موقع مداد، على الرابط https://cutt.us/45IlF

[١٩] الطبري: **تاريخ الرسل والملوك**، د(ار الكتب العلمية، بيروت، ط١، سنة ١٤٠٧هـ). ١٣/٢

عمر يلعن السائل عما لم يكن"[٢٠]. وكان زيد بن ثابت t إذا سئل عن الشيء يقول: كان هذا؟ فان قيل: لا، قال: "دعوه حتى يكون"[٢١].

فترتب على ذلك أن تضخمت أبواب في الفقه، مثل فقه الطهارة والصلاة، وضمرت أخرى تشتد الحاجة إليها، مثل مسائل الإمامة والجهاد وقضايا السياسة والاقتصاد والعلاقات الدولية.

بينما أهملت علوم الحياة الدافقة من طب وهندسة وفلك وطبيعيات وغيرها، في حين تقدمت أمم الغرب بعنايتهم بتلك العلوم، وتسخير إمكاناتهم السياسية ومواردهم الاقتصادية في دعمها، ونجحوا في تكسير قيود الكنيسة التي اجتهدت في صد سيلهم الزاخر، فتقدموا وتأخرت شعوبنا، ولم تفدهم الشروح والحواشي، وتشريف بعض العلوم، والغض من علوم أخرى. ودفعت الأمة أثمانًا فادحة لتأخرها في تلك العلوم، حيث وقفت عاجزة عن صد الطامعين فيها الذين امتلكوا أزمَّة العلم وقوته المادية الكاسحة .

وقد اعتدل الميزان أو قارب الاعتدال في القرن الأخير، إذ اتجه كثيرون من طلاب العلم إلى العلوم التجريبية، وربما كان الدافع الاقتصادي مما قاد إلى تلك الوجهة، إذ علت مكانة المشتغلين بالرياضيات والطب والهندسة، وأجورهم ، في مقابل المتخصصين بالآداب واللسانيات والعلوم الدينية.

لقد أدى تقدم العلوم في عصرنا إلى بروز عوار آخر في مجال عدد من العلوم الإنسانية، أصبحت الحاجة إليها ماسَّة، وأصبحت مجاراة التقدم العلمي الراهن فيها واجبة، مثل علوم السياسة، والإعلام، واللغات والآداب المختلفة، والفلسفات القائدة، وعلوم المستقبل، ومناهج التفكير والبحث، وطرق الإدارة وغير ذلك، مما يستوجب انفساح الرؤى الحاكمة لمسارات العلوم ومناهجه وأولوياته ومقاصده، وإحداث التوازن في كل ذلك.

---

[٢٠] لخطيب البغدادي: **الفقيه والمتفقه**، تحقيق أبو عبد الرحمن عادل بن يوسف الغرازي، (دار ابن الجوزي، السعودية، ط٢، سنة ١٤٢١هـ)، ١٢/٢

[٢١] المصدر نفسه ١٣/٢، ابن حجر: **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، (المكتبة السلفية (د. ت)

٢٦٦/١٣، محمد جمال الدين القاسمي: **محاسن التأويل**، تحقيق محمد باسل عيون السود، (دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، سنة ١٤١٨هـ)، ٢٦٧/٤

ب) أزمة الاجتهاد الفقهي وضمور مساراته:

تعالت النداءات بإغلاق باب الاجتهاد الفقهي[٢٢] حوالي القرن الرابع الهجري، وكانت نيات المنادين به تبدو صالحة، بالرغم مما آلت إليه من نتائج وخيمة على الأمة ودينها. فقد رأى أصحابها شيوع المذاهب الفقهية واستقرارها، وما صحب ذلك من تعصب مذهبي، وعكوف على نصوص الأئمة والفقهاء السابقين، وإثارة الخلافات المذهبية، والمناظرات والمجادلات الضيقة، والوقوف على الفروع الفقهية والجزئيات الخلافية، مع ضعف الملكات، وغياب الحركية الاجتهادية، وضعف الوازع الديني، حتى وصل الأمر إلى ادّعاء الاجتهاد من غير أهله، ومما لأة الحكام في رغباتهم وأهوائهم، "ولذلك أعلن كثير من العلماء غلق باب الاجتهاد؛ لسد الطريق أمام الجهال أو أنصاف العلماء، للوقوف حصرًا على أقوال المذهب المنتشرة والسائدة، وذلك بحسن نية، ومن باب السياسة الشرعية التي تعالج حالة قائمة، أو أمرًا مؤقتًا، أو فوضى اجتهادية، وظرفًا طارئًا، وليس لها دليل شرعي صحيح، أو حجة قوية، ثم شاع ذلك وانتشر.. وكان من أثر هذه الدعوة، ورفع هذا الشعار؛ أن فترت الهمّة، وجمد النشاط، وخف الاجتهاد إلى أدنى مستواه، وانصرف معظم الفقهاء إلى تدوين الكتب المذهبية والخلافية، واختصارها في متون، ثم وضع الشروح والحواشي عليها"[٢٣].

ولا يعني ذلك أن عصور الإسلام – منذ تصاعد هذه الآراء بإغلاق باب الاجتهاد – خلت من مجتهدين كبار، كان وجودهم قدحًا في دواعي ذلك وضرورته، ومنهم في القرن الثامن الهجري وحده ابن تيمية (ت 728هـ) وشمس الدين الذهبي (ت 748هـ) وابن القيم (ت 751هـ).. وفي أخرياته عاش ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ)؛ أحد المجددين الكبار في تاريخ الإسلام ، ومن المؤكد أن مسيرة الاجتهاد قد تواصلت بالنظر إلى امتداد تاريخ الأمة، ورحابة عالمها، لكن الغالب على الفكر الإسلامي آنذاك كان الانصياع إلى إغلاق باب الاجتهاد.

وظلت الصيحات بذلك تتردد على مدى قرون، حتى عصرنا الحديث لأسباب شتى.. وممن ردد ذلك من العلماء الكبار بديع الزمان النورسي (ت ١٣٧٩هـ/ ١٩٦٠م) في "رسالة الاجتهاد"، فبالرغم من أنه يقرر ضرورة الاجتهاد؛ إلا أنه تخوف من انفتاح أبوابه، وانشعاب الآراء بسببه في وقت يحارب فيه الإسلام وأصوله

---

[٢٢] وتعريف الاجتهاد هو بذل الطاقة من الفقيه في تحصيل حكم شرعي ظنِّي"(وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بالكويت: **الموسوعة الفقهية**، (دار السلاسل، الكويت، ط٢، سنة ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م)، ١٨/١-١٩)

[٢٣] د. محمد مصطفى الزحيلي: **الوجيز في أصول الفقه الإسلامي**، (دار الخير للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق ، ط2، سنة 1427هـ 2006م)، 304/٢

وثوابته[٢٤].. وقد كان تخوف الشيخ له ما يبرره، ففي حمى استعلاء القوميات ودعاوى الوطنية وجدنا من ينادي بإسلام هندي أو تركي أو عربي، متخذًا من دعوى الاجتهاد مبررًا له[٢٥].

والدعوة إلى إغلاق باب الاجتهاد تخالف طبيعة الإسلام نفسه، فهو الدين الخاتم الذي ينبغي أن يواكب حاجات البشر إلى قيام الساعة، والذي تعهد الله تعالى لأمة الإسلام "أن يبعث على رأسها كل مائة عام من يجدد لها أمر دينها[٢٦]. وهو الدين الذي يسعى إلى نشر مبادئه وشريعته وسيادته وسلطانه، "ولا يكون ذلك إلا بالاجتهاد في شرعه الواسع المرن، فترك الاجتهاد هو الذي رد بعضهم إلى البداوة التي قُضي عليها، أو إلى ما يقرب منها، وطوَّح ببعضهم إلى التفرنج والإلحاد، والسعي إلى البعد عن الدين"[٢٧].

وأدى التنادي بترك الاجتهاد؛ والاكتفاء بالموروث الفقهي وما يتفرع عنه؛ إلى الزهادة في فقه نوازل عصورهم، ثم ضعف ملكة التفكير النابه عندهم، ثم العجز عن مواجهة التحديات العلمية الثائرة في زمانهم، مما باعد بالتدريج بينهم وبين حكام زمانهم، والمتصدرين للتشريع والسياسة والمال.. فآلت الأمور إلى "استبدال بعض القوانين الإفرنجية بالشريعة الإسلامية، تقليدًا، ثم تشريعًا"[٢٨]، وأدى ابتعاد الفقهاء عن تيار الحياة الزاخر من حولهم إلى أن فأصبحوا "أجهل أهل بلادهم بالفنون المالية، وبما يرتبط بها من الأمور السياسية"[٢٩]، حتى تحسر خير الدين التونسي (1820-1890م) – الوزير الأول في تونس ثم الصدر الأعظم في الدولة العثمانية – على حالهم في زمانه فقال: "أفيحسن من أُساة الأمة الجهلُ بأمراضها؟"[٣٠]

---

[٢٤] راجع د. وثيق بن مولود و د. عمار جيدل: **وقفات مع رسالة الاجتهاد للأستاذ النورسي**، النور للدراسات الحضارية والفكرية، NUR Academic Studies on Thought and Civilization 7(7); 2013

[٢٥] د. محمد حسين: **الإسلام والحضارة الغربية** (دار الفرقان، القاهرة، (د. ت) ص ٥٢-٥٣

[٢٦] حديث" إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا"، رواه أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني (ت٢٠٥هـ)، **سنن أبي داود**، تحقيق شعيب الأرنؤوط ومحمد كامل قره بللي، (مؤسسة الرسالة العالمية، بيروت، ط١، سنة ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م)، باب في كتاب العلم، ٤٨٩/٥، حديث رقم ٣٦٤٦ وصححه السخاوي، محمد بن عبد الرحمن بن محمد (ت ٩٠٢هـ): "**المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المنتشرة على الألسنة**"، تحقيق د. محمد عثمان الخشت، (دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، سنة ١٩٨٥م)، ص ٢٠٣، حديث رقم ٢٣٨

[٢٧] رشيد رضا: **الخلافة**، (مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، سنة ٢٠١٢م)، ص٨٠

[٢٨] رشيد رضا: المرجع السابق ص٨٨

[٢٩] رشيد رضا: المرجع السابق ص ٩٥

[٣٠] خير الدين التونسي: **أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك**، (مؤسسة هنداوي، القاهرة، سنة ٢٠٢٢)، ص ٨

فلا عجب أن تباعدت السبل بين السلاطين والعلماء، فالعلماء جعلوا غاية همهم "مدارسة الكتب التي أُلفت للأزمنة الماضية، التي كانت دار الإسلام فيها ذات استقلال ومنعة"[٣١]، وتجاهلوا نصيحة شهاب الدين القرافي المالكي (ت 684هـ) وهو يقول:" ولا تجمد على المسطور في الكتب طول عمرك"[٣٢].. واستراحوا إلى الاسترزاق من أموال الأوقاف التي دأب أصحابها على وقفها لأصحاب المذاهب الفقهية الجامدة، فأصبحت أزمَّتها بأيديهم، أما السلاطين فأسعدهم انكشاف جهل هؤلاء العلماء بالواقع السياسي والاقتصادي والتشريعي المتجدد، وتغييبهم عن مشكلات الأمة ومصالح الرعية، وتوجيه الحكام بشأنها، والإنكار عليهم إن جاروا وبغوا.. "على أن مقلدة المذاهب لا تكاد تطلب الحكومة منهم شيئاً إلا ونجد فيهم من يفتيها؛ ولو بالتأويل والخروج عن صحيح المذهب. إذن لا يمكن خروج الأمة الإسلامية من جحر الضب الذي دخلت فيه إلا بالاجتهاد"[٣٣].

والاجتهاد يحتاج إلى أدوات لا يملكها إلا أهله، أما عامة الناس فلهم اتباع مذاهبهم.. "ولكل مسلم لم يبلغ درجة النظر في أدلة الأحكام الفرعية أن يتبع إماماً من أئمة الدين، ويحسن به – مع هذا الإتباع – أن يجتهد ما استطاع في تعرُّف أدلة إمامه، وأن يتقبّل كل إرشاد مصحوب بالدليل، متى صحَّ عنده صلاح مَنْ أرشده وكفايته، وأن يستكمل نقصه العلمي إن كان من أهل العلم حتى يبلغ درجة النظر"[٣٤]؛ أي القدرة على الترجيح والاجتهاد ولو جزئيًا.

---

[٣١] راجع رشيد رضا: السابق ص ٩٦

[٣٢] القرافي: **الفروق (أنوار البروق في أنواء الفروق)**، (عالم الكتب، (د.ت) ١/١٧٦

[٣٣] رشيد رضا: السابق ص ٩٧– ٩٨

[٣٤] حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا**، (البصائر للبحوث والدراسات، ط٢، سنة ٢٠١٠)، ص٢٣٦

ج) خطأ النظر إلى مفهومي البدعة الابداع:

والمقصود بالإبداع: إنشاء صَنعة بلا احتذاء واقتداء، ومنه حديث" كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة"[٣٥] ، وتتعدد آراء العلماء في مفهوم البدعة[٣٦]، "والتحقيق: أنها إن كانت مما يندرج تحت مستحسن في الشرع فهي حسنة، وإن كانت مما يندرج تحت مستقبح فهي مستقبحة، وإلا فهي من قسم المباح"[٣٧].

إن هذا الفهم لمعنى البدعة في الدين، والتحذير منها، والتفريق بينها وبين الإبداع في أمور الدنيا ومصالح الخلق، والحض عليها؛ قد تعرض لتشويه كبير في عصور الضعف والتراجع، بل كان من أبرز أسبابه.. وأدى إلى مخاصمة العلوم والتقنيات، ثم وسم الإسلام نفسه بأنه دين رجعي منغلق، يحول بين أتباعه وآفاق الحضارة الرحيبة، وأنه لا سبيل لانطلاق الأمة من عقالها، ولحاقها بركب العالم المتقدم إلا بالانسلاخ من الدين كله.

ومن خلال الفهم الخاطئ لمفهوم البدعة تولَّد الحذر من كل جديد ومخترَع، بل تحريمه وتجريمه! كما سنرى..

نماذج لكراهية الجديد:

- **موقف ضعفاء المماليك والعثمانيين من التجديد في أدوات القتال:**

---

[٣٥] الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد (ت ٥٠٢هـ): **المفردات في غريب القرآن**، تحقيق صفوان عدنان الداودي، (دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، ط١، سنة ١٤١٢هـ)، ص ١١٠-١١١، والحديث رواه مسلم: صحيح مسلم، كتاب الجمعة، بلب تخفيف الصلاة والخطبة، ٥٩٢/٢، حديث رقم ٨٦٧

[٣٦] راجع في تفسيرات العلماء لمعنى البدعة: علي محفوظ: **الإبداع في مضار الابتداع**، (مكتبة الرشد، الرياض، ط١، سنة ٢٠٠٠م)، ص ٢١-٢٦، ويرى بعض علمائنا أن البدعة ما كانت في أمور الدين، دون أمور الدنيا التي لا بد فيها من تجديد وإبداع، ما دام لا يخالف الشريعة، وفي ذلك يقول ابن رجب: "المراد بالبدعة ما أحدث مما لا أصل له في الشريعة يدل عليه، أما ما كان له أصل يدل عليه، فليس بدعة شرعًا، وإن كان بدعة لغة"، (**جامع العلوم والحكم**، تحقيق شعيب الأرنؤوط، (مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٧، سنة٢٠٠١م)، ١٢٧/٢)، ويرى آخرون أن كل محدثة بدعة، سواء كانت من أمور الدين أو الدنيا، وأن "البدعة بدعتان: بدعة محمودة وبدعة مذمومة، فما وافق السنة فهو محمود، وما خالف السنة فهو مذموم" على حد قول الشافعي راجع أبو نعيم: **حلية الأولياء**، (مطبعة السعادة بمصر، سنة ١٩٧٤م)، ١١٣/٩، ابن رجب: المصدر السابق 131/٢)، ومنه قول عمر رضي الله عنه: "نعم البدعة هذه"، لما جمع المسلمين على صلاة التراويح في رمضان، فجعلها شعيرة دائمة، ولم يكن النبي صلوات الله عليه قد جمعهم عليها (البخاري: صحيح البخاري، كتاب صلاة التراويح، باب فضل من قام رمضان ٧٠٧/٢)

[٣٧] فتح الباري 4/253، المكتبة السلفية (د. ت)

ومن الأمثلة المثيرة للشفقة والعجب معًا موقف آخر سلاطين المماليك من استعمال البنادق في الدفاع عن دولتهم!

ويحكي ابن زنبل – الذي أرخ آواخر أيام المماليك – أن رجلاً مغربيًا جاء إلى السلطان قنصوة الغوري، وأخبره عن خطورة تأثير سلاح البندقية، وأنه قد "استعملها عساكر الروم والعرب، فأمره أن يعلمها لبعض مماليكه، ففعل، وجيء بهم، فرموا بحضرته، فساءه ذلك، وقال للمغربي: **نحن لا نترك سنة نبينا ونتبع سنة النصارى**، وقد قال مولانا سبحانه وتعالى: "إن ينصركم الله فلا غالب لكم"سورة آل عمران من الآية ١٦٠، فرجع ذلك المغربي وهو يقول: من عاش ينظر هذا الملك وهو يؤخذ بهذه البندقية، وقد كان كذلك، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم".[٣٨].

وظل ذلك موقف المماليك بعد أن قتل الغوري وسيطر العثمانيون على الشام سنة 1516م، ثم تقدموا نحو مصر وهزموا سلطانها طومان باي في العام التالي، وجرى شنقه، وتفرق جيشه، وأسر بعض قادته، ومنهم كرتباي الوالي، فلما اقتيد إلى مجلس السلطان العثماني سليم جرت بينهما محاورة، فبرر هزيمة الجيش المملوكي باستعمال العثمانيين البنادق، ولا فضيلة لهم في ذلك – فيما يزعم – لأن هذا سلاح لو استعملته امرأة لقتلت من أمامها، "ونحن لو اخترنا الرمي بها ما سبقتنا إليه، ولكن نحن قوم لا نترك سنة نبينا محمد، ويا ويلك كيف ترمي بالنار على من يشهد لله بالوحدانية ولمحمد صلى الله عليه وسلم بالرسالة؟"[39].

وقد عاير أحد أمراء المماليك – واسمه شار بك– السلطان سليم قائلاً: "آه يا جبان يا ابن الجبان! يا من يقاتل المسلمين بالنيران"[٤٠].

والغريب أن المماليك كانوا يستعملون المدافع، وكان طومان باي قد جهزها بالفعل لحرب السلطان سليم، إلا أن أحد كبار قادته قد خدعه، وأشار عليه بإخفائها في الرمال حتى لا يكتشفها جواسيس العدو، ثم أفشى ذلك القائد سرها للعثمانيين ليتجنبوا آثرها[٤١]، فكيف يتحرجون من استعمال البنادق حتى تحصد جنودهم؟ ويقول مؤرخهم:" "ما ضرهم إلا البندق، فإنه يأخذ الرجل على حين غفلة، لا يعرف من أين

---

[٣٨] ابن زنبل الرمال: **آخرة المماليك** تحقيق عبد المنعم عامر، (الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط٢، سنة ١٩٩٨م)، ص ١٤٠

[39] المصدر السابق ص ١٣٩–١٤٠

[٤٠] المصدر نفسه، ص ١٨٩

[٤١] المصدر نفسه ص ١٢٧–١٢٩

جاءه، فقاتل الله أول من صنعها، وقاتل من يرمي بها على من يشهد لله بالوحدانية، ولرسوله صلى الله عليه وسلم بالرسالة" [42].

ولا غرابة أن نجد التفكير ذاته عند بعض فرق الجيش العثماني نفسه، فقد كانت فرقة السباهية – أي الفرسان المدرعين – آنذاك يتسلحون بالسيف والرمح والقوس، ويرون أن استخدام الأسلحة النارية لا يليق بمفهومهم عن الشجاعة، ويلاقون الويلات أمام المشاة الألمان المسلحين بالأسلحة النارية، حتى أصلح السلطان سليمان القانوني ذلك الخلل، بتقليل أعدادهم، وزيادة أعداد المقاتلين بالبارود والمدافع[٤٣].

وهل من تفسير لذلك سوى التمسك بتقاليد بالية في القتال، ورفض التجديد دون تعقل، والزعم بأن ذلك الخبال هو سنة الرسول صلوات الله عليه وصحبه الكرام؟ بينما يأمر الله تعالى في قرآنه قائلاً: (وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ) سورة الأنفال آية ٦٠ ، ورسولنا صلى الله عليه وسلم قد حفر الخندق في حرب قريش والأحزاب؟ أخذ ذلك عن الفرس، وتلك حيلة لم يكن للعرب بها عهد، كما قال زعماء قريش، واتخذ المنجنيق في حصار الطائف، وفي حرب خيبر.

واستمر التخلف العلمي يأتي بثماره المرة حتى القرون الأخيرة، فلما نشبت الحرب الروسية العثمانية سنة 1768م قيل للعثمانيين إن الروس عزموا على جلب أسطول لهم من بحر البلطيق ليعززوا به قوتهم البحرية، فرفض العثمانيون — الذين غفلوا عن تطور علم الجغرافيا ووسائل الانتقال البحري – أن يصدقوا أن ثمة طريقًا بحريًا يصل ما بين بحر البلطيق والبحر المتوسط ، حتى باغتهم الأسطول الروسي بالفعل[٤٤].

– موقف الخلافة العثمانية من استعمال آلات الطباعة:

قامت الطباعة بدور حاسم في التطور البشري، والنهوض الثقافي والمعرفي، إذ نقلت النتاج العقلي المكتوب من مرحلة النتاج المحدود للنساخين والوراقين إلى مرحلة النتاج الكثيف للمطابع الآلية.

لكن الفتاوى المتعجلة والخاطئة حالت دون لحاق المسلمين بركب التقدم عقودًا من الزمن.

---

[٤٢] المصدر نفسه ص ١٢٥

[٤٣] راجع د. خليل إينالجيك: **تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار**، ترجمة د. محمد م. الأرناؤوط، (دار المدار الإسلامي، بني غازي، ليبيا، ط١، سنة ٢٠٠٢م) ص ٧٨-٧٩

[٤٤] أرنولد توينبي: **مختصر دراسة للتاريخ**، ترجمة فؤاد محمد شبل، (المركز القومي للترجمة، القاهرة، سنة ٢٠١١)، ٣١٢/٣

فقد طُبع أول كتاب في الغرب بالحروف اللاتينية ما بين عامي 1440م و 1450م ، كما طُبع أول كتاب بالحروف العربية عام 1514م في مدينة فانو بإيطاليا[٤٥]..

وفي عام 1493 أسس بعض اليهود الفارين من الأندلس – بعد سقوط غرناطة – أول مطبعة في عاصمة الدولة العثمانية إبان حكم السلطان بايزيد الثاني (1481–1512م)، الذي أصدر فرمانًا يحرم الطباعة على رعاياه المسلمين، بينما سمح لليهود والمسيحيين بإنشاء مطابعهم داخل الدولة العثمانية؛ شريطة عدم استعمال الحروف العربية. فأسس الأرمن أول مطبعة لهم سنة 1567م، وأسس الروم اليونانيون أول مطبعة لهم سنة 1627م [٤٦].

أما اشتراط السلطان بايزيد عدم استعمال الحروف العربية في الطباعة فجاء تلبية لبعض الفتاوى التي ذهبت إلى تحريم طباعة القرآن الكريم والكتب الشرعية، مخافة أن يؤدي استعمالها إلى الخطأ في كتابة آيات القرآن العظيم، أو كتب العلوم الشرعية، وشيوع تلك الأخطاء بسبب سرعة انتشار المطبوعات، وكذلك إمكان تسبب الاعتماد على الكتب المطبوعة في إضعاف ملكة الحفظ والاستظهار التي امتاز بها علماء المسلمين..

ومن هذه الفتاوى فتوى الفقيه المغربي محمد بن إبراهيم السباعي الذي خط وثيقة سماها "رسالة في الترغيب في المؤلفات الخطية، والتحذير من الكتب المطبوعة، وبيان أنها سبب في تقليل الهمم، وعدم حفظ العلم ونسيانه"، ومن الواجب أن يضاف إلى هذه الهواجس تلك النظرة الضيقة التي تراعي مصالح جماعات من الخطاطين، رأوا في الطباعة سببًا لكساد مهنتهم، والحط من أقدارهم كجماعة متميزة في السُلَّم الاجتماعي.

وكان علينا أن ننتظر ثلاثة قرون منذ بدء الطباعة حتى أصدر السلطان "أحمد الثالث" فرمانًا سنة 1139هـ/1727م – بموافقة شيخ الإسلام– يقضي بتأسيس مطبعة لطباعة الكتب باللغة التركية، لكنها غير مسموح لها بطباعة الكتب الدينية.. وظلت الأمور تتراوح بين الموافقة على الطباعة والمنع، حتى عصف الانفتاح على أوروبا في النهاية بتلك المخاوف[٤٧].

---

[٤٥] سليم نزهت: **تاريخ الطباعة في تركيا** ١٧٢٩–١٩٢٩م، ترجمة وتعليق سهيل صابان، (مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض ، ١٤١٣هـ)، ص ١٠–١١

[٤٦] المرجع نفسه ص ٢١–٢٢

[٤٧] برنارد لويس: **ظهور تركيا الحديثة**، ترجمة قاسم عبده قاسم وسامية محمد، (المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط١، سنة ٢٠١٦م)، ص ٦٥، ٧٣–٧٤، ٢٣٦، شكيب أرسلان: **تاريخ الدولة العثمانية**، (دار ابن كثير، دمشق، ط١، سنة ٢٠١١)، ص ٢٤٤، حسن الوزاني: **تحريم الطباعة**، (مقال بجريدة العرب، بتاريخ ٢٣ يوليو ٢٠١٦م)، تم الاطلاع

أما في مصر فقد تأخر ظهور المطبعة حتى الحملة الفرنسية، حيث جلبها نابليون معه سنة 1897م لطباعة منشوراته الدعائية، وكتابات المستشرقين المرافقين له، وتيسير أمور حربه[٤٨].

لقد أدت التخوفات المبالغ فيها والإسراف في باب سد الذرائع، والتسرع في إصدار الفتاوى دون معرفة حصيفة بالواقع، أو نظر سديد إلى المآلات؛ إلى تأخر المسلمين في الأخذ بأسباب النهوض قرونًا من الزمن..

المبحث الثاني: المعوقات السياسية والاجتماعية للنهضة العلمية

أ) سلبيات الإدارة السياسية لقضايا التعليم:

إن تراجع فرص الترقي العلمي والاجتماعي النزيهة المبرأة من الفساد، وتزايد التضييق السياسي على العلماء المخالفين في الرأي والمذهب، والمعارضين في السياسة[٤٩]، والحد من الإنفاق على التعليم، وتقليص الميزانيات المخصصة للبحث العلمي، والعمل الأكاديمي كله، وتقديم صورة سلبية عن العلماء وطلاب العلم، وانقلاب الموازين الاجتماعية في النظر إليهم مقارنة مع غيرهم، وتأخيرهم وتقديم غيرهم ممن قلت حظوظهم من الكفاءة والنباهة؛ مما يترك آثاره على مواجهة التخلف العلمي، فضلاً عن تشابك الاستبداد السياسي والفساد الداخلي؛ فالحريات بأشكالها المختلفة تعد أبرز سمات البيئات المحفزة للمعرفة، وكل بيئة تمكينية راعية للحريات توفر إطارًا ملائمًا لقيام مجتمع المعرفة[٥٠]،

ولا نجد محاولات جادة في كثير من العالم الإسلامي للتصدي لمحاولات فرض التخلف الاقتصادي والفساد السياسي والاجتماعي، وتغذية الصراعات الطائفية والعرقية، والاضطرابات الداخلية، والحروب بين الدول الإسلامية.. مما أسهم في إلهاء العالم الإسلامي عن نشدان التقدم العلمي، ولا سبيل للنهضة إلا به.

عليه بتاريخ ٢٠٢٢/١/٦ الساعة ٦،١٠، وراجع **الطباعة في العهد العثماني.. بين الافتراءات والحقيقة**، مقال بموقع ترك برس، تم الاطلاع عليه في التاريخ المذكور، ورابطه: https://www.turkpress.co/node/43195

[٤٨] جون ماري كاريه: **مختارات من كتاب رحالة وأدباء فرنسيون في مصر**، ترجمة د. سونيا مجا ود. رشا صالح، (مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، الكويت، ط١، سنة ٢٠٠٦م)، ص ٢٢٩، د. زينب عبد العزيز: **مائتا عام على حملة المنافقين الفرنسيس**، (د. ن)، سنة ١٩٩٨)، ص ١٤

[٤٩] راجع أنطونيوس كرم: العرب أمام تحديات التكنولوجيا ص ١٠٣-١١١

[٥٠] **تقرير المعرفة العربي** للعام 2009م ص 53-54، تصدره مؤسسة محمد بن راشد المكتوم بدبي بالتعاون مع برنامج الأمم المتحدة للتنمية، سنة ٢٠٠٩م.

ب) تعويق مشاركات الأوقاف[٥١] والمجتمع المدني في التعليم:

مثلت الأوقاف في الخبرة الإسلامية الجهد المجتمعي في إدارة أمور الأمة بالمشاركة مع الجهد الحكومي، وإن ظلت معظم أوجه العمل المجتمعي مكفولة من المجتمع ذاته، وعلى رأسها التعليم، منذ كان مرتبطًا بالمساجد، فكان بناؤها والنفقة عليها وعلى الكتاتيب الملحقة بها مما تكفل به – غالبًا – المنفقون من المسلمون، ولما ظهرت المدارس كان للوقف الأهلي دور بارز في إنشائها وتبنيها وكفالة طلابها، ومعلميها، فلما ظهرت الجامعات الكبرى مثل جامع الأزهر 361هـ/ ٩٧٢م، ثم المدرسة المستنصرية في بغداد سنة ٦٣١هـ/١٢٣٣م، خُصصت لها الأوقاف الكثيرة، مما ضمن استقلال أساتذتها وطلابها، ومناهج التدريس فيها، ووفرة علمائها ومكتباتها[٥٢].

ولما طغى التأثير الغربي على أنظمة الحكم في العالم الإسلامي بدأ التغوّل الحكومي، فاختفى نموذج "الدولة الحارسة" السائد في معظم العصور الإسلامية– والذي تكتفي فيه الدولة بأمور السياسة العليا والجهاد وإنفاذ الشريعة، وتترك مساحات واسعة للمشاركات الشعبية في تسيير أمور المجتمع – ليحل محله نموذج "الدولة المستبدة" التي تحكم سيطرتها على البلاد والعباد، وتخشى من سلطان العلماء والقوى الاجتماعية النافذة، وكان من أهم ما توجهت إليه هو السيطرة على الأوقاف، وكان الاستيلاء على الأوقاف المخصصة للمؤسسات التعليمية على رأس أولويات تلك الحكومات في طورها الجديد.

---

[٥١] المقصود بالوقف في اللغة: الحبس والمنع، وفي الشرع: حبس العين عن التمليك؛ مع التصدق بمنفعته، راجع الجرجاني، االشريف علي بن محمد بن علي (ت٨١٦هـ)، **كتاب التعريفات**، (دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، سنة ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م)، ص٢٥٣، د. وهبة الزحيلي: **الفقه الإسلامي وأدلته**، (دمشق، دار الفكر، ط٤ المنقحة، (د.ت) ٧٦٠٧/١٠، وهو من الأعمال العظيمة الأجر، الجليلة الأثر في الإسلام، وقد تبارى الصحابة في وقف كرائم أموالهم لله، أخذًا بقوله تعالى: (لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ) آل عمران آية ٩٢ حتى قال جابر بن عبد الله – رضي الله عنه –: "لم يكن أحد من أصحاب رسول الله ذو مقدرة إلا وقف"، راجع ابن قدامة، عبد الله بن أحمد بن محمد (ت ٦٢٠هـ): **المغني**، (مكتبة القاهرة، القاهرة (د.ت)، ٣/٦

[٥٢] راجع د. إبراهيم البيومي غانم: **تحولات العلاقة بين الأوقاف والتعليم العالي في مصر الحديثة**، (مجلة أوقاف، الأمانة العامة للأوقاف، الكويت، العدد ٢٠، السنة ١١، جمادى الأولى ١٤٢٢هـ/مايو ٢٠١١م)، ص ١٩–٢١

فقد استولى محمد علي باشا في مصر على الأوقاف المخصصة للأزهر، وهو المؤسسة التعليمية الكبرى في البلاد، وكان صنيع محمد علي يعني أن التعليم أصبح مسئولية الدولة، وأن "مرجع الأمر فيه إلى إرادة رجل واحد"(٥٣).

غير أن محمد علي لم يمنع المجتمع من تخصيص أوقاف جديدة للتعليم في الأزهر، وبذلك عادت الأوقاف الباذخة إليه من جديد، حتى جاءت الثورة المصرية في سنة ١٩٥٢ لتستولي على الأوقاف كلها، وتجعلها تحت سيطرة وزارة الأوقاف، أي في قبضة الحكومة، وتم تأميم المؤسسات التعليمية لتنفرد الدولة بأمره كله(٥٤).

كانت سيطرة الدولة على ميزانيات التعليم تعني إدارته في فلك الدولة، والقضاء على استقلاليته، كما كانت تعني رهن العملية التعليمية بقدرات الدولة المالية، مما أسفر عن تقتير كبير في الإنفاق على التعليم والبحث العلمي الذي تزايدت كلفته في عصرنا الحديث، مما قاد في النهاية إلى تخلف علمي متراكم.

عظم دور المشاركة المجتمعية في التعليم الغربي:

وبينما يحدث هذا في معظم عالمنا الإسلامي كان الغرب يخطو خطوات واسعة نحو توسيع المشاركة الأهلية في مجالات التعليم والبحوث، وهو جزء من المشاركة في العمل الاجتماعي بشكل عام، ففي الولايات المتحدة الأمريكية ٧٥ ألف مؤسسة خيرية مانحة، بحسب إحصائية سنة ٢٠٠٨م، تقدم منحًا تقدر ب ٦٥٦ بليون دولار، يذهب أكثر من خمسها للمؤسسات التعليمية، من جامعات ومعاهد ومدارس، ومراكز أبحاث، وتدريب وتطوير، فإذا أضفنا المنح المقدمة إلى التطوير التكنولوجي العلمي فإن القيمة ترتفع إلى ما يقارب الثلث(٥٥).

ومما يذكر هنا أن ذلك السلوك الاجتماعي الحميد قد رعته الدولة وشجعته، وسنّت القوانين التي تفتح له الأبواب، وتشجع المانحين، وتعطيهم من الامتيازات المادية والأدبية ما يشعرهم بالرضا عما يفعلون.. كما نشير إلى أنه ليس سلوكًا طارئًا في العقود الأخيرة، بل هو منهج قديم، حيث تأسست في القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين عدد من الجامعات الأمريكية الكبرى، جملت أسماء أشهر مؤسسيها، مثل جامعة

---

(٥٣) د. أحمد عزت عبد الكريم: **تاريخ التعليم في عصر محمد علي**، (مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٣٨م)، ص ٥٦٥

(٥٤) إبراهيم بيومي غانم: مقال سابق ص ٣١-٣٤

(٥٥) د. طارق عبد الله: **هارفارد وأخواتها، دلالات الوقف التعليمي في الولايات المتحدة الأمريكية**، مقال بمجلة أوقاف، العدد ٢٠. السنة ١١، ص٥٤

يال Yal التي تأسست سنة ١٧٠١م، وجامعة ستانفورد Stanford التي تأسست سنة ١٨٩١م، وجامعة كارنيجي Carnegie وتأسست سنة ١٩٠٠م، وجامعة روكفلر Rockefeller وتأسست سنة ١٩٠١م، وقبلهم جميعًا تأسست أشهر الجامعات الأمريكية "هارفارد" التي أسسها القس البروتستانتي جون هارفارد Harvardسنة ١٦٣٦م[٥٦].. والتي بلغت الأوقاف المخصصة لها في سنة ٢٠٠٧م أكثر من ٣٤,٦٣٤ مليار دولار[٥٧].

وتعود الريادة والسمعة العلمية العالية لهذه الجامعات إلى ما تحظى به من ميزانيات ضخمة، وإنفاق هائل على البحث العلمي، وما يتمتع به أساتذتها من مكانة علمية رفيعة، فإن ٤٣ من أعضاء هيئة التدريس في هارفارد قد حصلوا على جزائز نوبل في العلوم، فضلاً عما حازه آخرون من جوائز عالمية في حقول معرفية أخرى[٥٨].

ج) اضطراب الهوية الإسلامية في أجواء الانفتاح العلمي:

المقصود بالهوية الثقافية والحضارية لأمة ما هو "الثابت والجوهري والمشترك من السمات العامة التي تميز حضارة هذه الأمة عن غيرها من الحضارات، والتي تجعل لها طابعاً تتميز به عن الأمم الأخرى"[٥٩]..

ومن المقطوع به أن التعليم والبحث العلمي ينبغي ألا يتضارب مع هوية الأمة، وأنه إن لم يستهدف تعزيزها، فلا أقل من أن يتساوق معها، وهو ما نفتقده في مسيرة التعليم إبان مرحلة الاستعمار الغربي وما تلاها من فترات.

لقد كان الانفتاح العلمي على الغرب الاستعماري أمرًا لا مفر منه، فهو المتملك أسباب العلم والنهضة، وهو المتحكم في مقدرات وسياسات بلادنا إبان فترة الاستعمار، وكانت الأجواء المصاحبة لهذا الانفتاح مشبعة بمشاعر الدونية والعجز والتردي ، من جانب، والانبهار بالنموذج الحضاري الغربي والدعوة إلى تبنّيه

---

[٥٦] المقال السابق ص ٥٦-٥٧

[٥٧] المقال نفسه ص ٧٢

[٥٨] المقال نفسه ص ٥٩-٦٠

[٥٩] راجع د. خالد رُوشه: **أزمة الهوية الإسلامية**، مقال بموقع المسلم، ١٨ ذو الحجة ١٤٢٩هـ، ورابطه: https://almoslim.net/node/103661 ، تتكون الهوية "نتيجة عمليةِ تفاعل مركبة بين جماعة من الجماعات البشرية؛ وثقافة وتاريخ المجتمع الذي تعيش في كنفه، وهي عملية تمتد ردحًا من الزمن، ومن خلال ذلك الامتداد الزمني تكتسب هذه الجماعة سمات معينة، وهوية محددة، تصبح ثابتة، أو شبه ثابتة، يُفترض أنها تميزها عن غيرها من الجماعات البشرية الأخرى"، د. عبد الوهاب المسيري: **من هم اليهود؟ وما هي اليهودية؟ أسئلة الهوية وأزمة الدولة اليهودية**، (دار الشروق، القاهرة، ط٦، سنة ٢٠٠٩)، ص١٠١

والأخذ به من جانب آخر، ويربط أبو الأعلى المودودي بين التأخر الحضاري في العالم الإسلامي والانهزام النفسي أمام الغرب، فيقول: "لما انقطع في المسلمين نبوغ أهل الفكر وأصحاب التحقيق؛ ولما ترك القوم مزاولة التفكير والبحث والتدقيق؛ وقعد بهم اللغوب عن موالاة الاجتهاد وتحصيل العلم؛ فلكأنهم تنازلوا من تلقاء أنفسهم عن مكانتهم في قيادة العالم، ونهضت من جانب آخر أمم الغرب تتقدم في هذا السبيل"(٦٠).

ويلخص مالك بن نبي أسباب أزمة العالم الإسلامي بقوله:" إن جوهر المسألة هو مشكلتنا العقلية"، ويعني بها التجافي الحاصل بين الهوية الإسلامية – التي يجب أن تنبع منها الحضارة – والواقع العقلي والثقافي للأمة(٦١).

فقد أدرك الغرب أن بقاءه مستعمرًا بلاد الإسلام لن يكتب له الخلود، فوضع منذ البداية خططه طويلة الأمد لصناعة النُّخَب صاحبة العقول الموالية له، وتمهيد السبل أمامها لتكون الطليعة الوارثة له.. واتخذ لذلك مسارات تستهدف استلاب تلك العقول بخلخلة معتقداتها الإسلامية، وهويتها الحضارية، ولم يكن ذلك صعبًا نظرًا لامتلاكه أزمَّة القيادة والتوجيه.

–توجيه البعثات إلى أوروبا:

كان إرسال البعثات إلى أوروبا للتعرف على مناهج العلم وطرقه ومنجزاته عملاً لا بد منه للحاق بركب المتصدرين في العالم، غير أن التخطيط لذلك العمل ووضع أهداف خبيثة له كان من فعل المستعمر الغربي الباكر نفسه، حيث وضع نابليون بونابرت – قائد الحملة الفرنسية على مصر سنة ١٧٩٨– خطة ابتعاث جماعات من المسلمين إلى أوروبا بهدف تغريبهم فكريًا، ثم إعادتهم إلى بلادهم ليكونوا رسل الحضارة الأوروبية فيها؛ فقد أمر في رسالته إلى الجنرال كليبر – نائبه على مصر – بتجهيز 500 إلى 600 من المماليك، فإن لم يجد العدد كافيًا فليكونوا من العرب ومشايخ البلدان؛ لتسفيرهم إلى فرنسا، فيظلوا هناك سنة أو سنتين، ليشاهدوا هناك عظمة فرنسا، ويعتادوا على تقاليدها ولغتها، ثم يعودوا إلى مصر فيكون لفرنسا منهم "حزبٌ يضم إليهم غيرهم"(٦٢).

---

(٦٠) **نحن والحضارة الغربية** ص ٤

(٦١) مالك بن نبي: **شروط النهضة**، ترجمة عبد الصبور شاهين وعمر مسعاوي، (دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، دمشق، سنة ١٩٨٦م) ص ٣٦

(٦٢) أحمد حافظ عوض: **فتح مصر الحديث، أو نابوليون بونابارت في مصر** ، (مطبعة مصر، سنة ١٩٢٥) ص ٤١٠، وراجع محمود محمد شاكر: **رسالة في الطريق إلى ثقافتنا**، (الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ضمن مكتبة الأسرة سنة ١٩٩٧م)، ص ١٠٨

وكان **البدء** بإرسال **البعثات العسكرية** إلى الغرب لما أرسل محمد علي باشا بعثاته الدراسية إلى فرنسا سنة 1826م، ثم سار في ذات الطريق السلطان محمود الثاني، فأرسل البعثات إلى بلدان أوروبية متنوعة بدءًا من سنة 1827م، وكان البدء في الحالتين متشابهًا، وذلك عن طريق فتح الأبواب أمام تغريب الجيوش، وهي القوى المنظمة التي يمكن الاعتماد عليها في فرض توجهات الدول وسياساتها(٦٣).

تلت **البعثات التعليمية المدنية** سابقتها العسكرية، فتلقفتها منظومات الاستشراق الغربي(٦٤)، وكان هؤلاء المبعوثون شبابًا، شبوا في أجواء من التدين الموروث الهش، لا يصمد أمام وهج الحضارة الغربية وبريقها. ولم تتحصن عقولهم بأصالة الاعتقاد، وأساليب الحِجاج عنه. ووجدوا أنفسهم أمام قامات علمية مشهود لها، ومناهج صارمة انقادوا إليها، ونقلوها إلى بلدانهم الظمأى إلى العلم ومناهجه، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا، وأنهم حين يجمعون أكوامًا من منتجات الحضارة يصنعون حضارة، والحقيقة أن "الحضارة هي التي تلد منتجاتها، وسيكون من السخف والسخرية حتمًا أن نعكس هذه القاعدة، حين نريد أن نصنع حضارة من منتجاتها"(٦٥).

– التأثيرات السلبية للتعليم الأجنبي:

يسفر المسيو شاتليه Chatelier المستشرق والمبشر النصراني عن أحد أهم غايات الاستعمار الفرنسي – التي لا تختلف عن غايات الاستعمار كله – وهي تغيير العقول الإسلامية لتوائم مراد الغرب منها، من خلال أدوات التعليم والتربية، فيقول في سنة ١٩١٠: "ينبغي لفرنسا أنْ يكون عملها في الشرق مبنيًا قبل

---

(٦٣) يقول المستشرق البريطاني هاملتون جب H. Gibb (١٨٩٥-١٩٧١م) – إن "الجيش أكثر عناصر الحياة السياسية تأثرًا بالنزعة الأوروبية"، والجهة التي يلجأ إليها التغريبيون الذين أضجرهم بطء قناعة الرأي العام بالتغريب، وبطء تجاوب المنظومة السياسية معه، فكان اللجوء لقوة الجيوش هو الورقة الحاسمة لإحداث التغيير الفوقي للمجتمعات المسلمة . راجع جب: **وجهة الإسلام**، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة، (طبعة جامعة لندن، سنة ١٩٣٣م)، ص ٤٣– ٤٤)

(٦٤)الاستشراق هو التبحر في لغات الشرق وآدابه وتسليط الضوء على حضارته ودراستها. راجع آربري، أ. ج.: **المستشرقون البريطانيون**. تعريب محمد الدسوقي النويهي. (لندن: وليم كولينز، ١٩٤٦) ص٨، إدوارد سعيد: **الاستشراق، المفاهيم الغربية للشرق**، ترجمة د. محمد عناني، (رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، سنة ٢٠٠٦م)، ص٤٤–٤٥، وعن ارتباط الاستشراق بالاستعمار الغربي والتنصير راجع د. محمد البهي: **الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي**، (مكتبة وهبة، القاهرة، ط٨، سنة ١٩٧٥)، ص ٤٨–٦٣) ، وقد صحب نابليونَ مائة وخمسة وستون من كبار علماء فرنسا ضمن حملته على مصر، شارك بعضهم في القتال، وقتل. راجع جون ماري كاريه: مصدر سابق، ص٢٠٢، ٢٢٣، ٢٢٦–٢٢٧)

(٦٥) مالك بن نبي: **شروط النهضة**، ص ٤٢، ٤٤

كل شيء على قواعد التربية العقلية"[٦٦]، وإن "نزع الاعتقادات الإسلامية ملازم دائمًا للمجهودات التي تبذل في سبيل التربية النصرانية"[٦٧].

وكان القس الإنجليزي صموئيل زويمر أكثر خبثًا، أو أكثر صراحةً، حيث قال: "إنَّ لنتيجة إرساليات التبشير في البلاد الإسلامية مزيتين: مزية تشييد، ومزية هدم، أو بالحري مزيتي تحليل وتركيب"، ويقصد بالهدم إخراج المسلمين من عقيدتهم كليّة، أو إضعافها فيهم، ويقصد بالبناء إدخالهم في النصرانية، أو تقريبهم منها، ويزعم زويمر أن "مئات من الناس انتزعوا الدين الإسلامي من قلوبهم، واعتنقوا النصرانية في طرف خفي"[٦٨].

ويؤكد شاتليه أن تعليم اللغات الأوروبية يفتح المجال للتأثر بالفكر الغربي، ويقود بهدوء إلى هدم الفكرة الإسلامية[٦٩].. فالتعليم إذن هو الباب الأوسع لإحداث الأثر، وديمومته، أو طول بقائه..

وقد كان الجهد الأبرز للإرساليات التنصيرية موجهًا إلى إنشاء المؤسسات التعليمية في بلاد الإسلام. وبخاصة في ظل الاحتلال الأجنبي، فنشطت الإرساليات في بلاد الشام في ذلك المجال، ومنها الإرسالية المشيخية الأمريكية التي جاءت إلى لبنان سنة 1820م، وافتتحت 33 مدرسة في خلال 40 سنة حتى سنة 1860، وأسست أكبر مؤسستين تربويتين في لبنان: الكلية السورية الإنجيلية سنة 1866م – وأصبح اسمها فيما بعد الجامعة الأمريكية في بيروت – وجامعة القديس يوسف اليسوعية سنة 1875م.

واضطلعت هذه المؤسسات بالدعاية لسياسات بلدانها الأصلية، كما قامت بالدور التنصيري المطلوب منها، وقدمت الرعاية للواعدين من طلابها النصارى، فأصبحوا بعد قليل أبرز مثقفي تلك البلاد، كما حدث في مصر والشام، ولهم القدح المعلَى في تدوير دولاب السياسة والفكر فيهما[٧٠]، وللدلالة على مبلغ القوة التي وصلوا إليها نذكر أن ربع النخبة السياسية في سوريا كانوا منهم[٧١].

---

[٦٦] **الغارة على العالم الإسلامي**، ترجمة محب الدين الخطيب ومساعد اليافي، (منشورات العصر الحديث، ط٢، جدة، سنة ١٣٨٧هـ)، ص١٣

[٦٧] حكاه عنه شاتليه: الغارة على العالم الإسلامي ص ٢٠

[٦٨] المصدر السابق ص ١٧

[٦٩] شاتليه: السابق ص ١٧-١٨

[٧٠] راجع زين نور الدين: **نشوء القومية العربية مع دراسة تاريخية في العلاقات العربية التركية**، (دار النهار للنشر، بيروت، ط٤، سنة ١٩٨٦م)، ص ٥٠-٥٤

[٧١] د. بشير زين العابدين: **الجيش والسياسة في سوريا ١٩١٨-٢٠٠٠**، دراسة نقدية ، (دار الجابية، ط١، سنة ٢٠٠٨م)، ص ٧٤

وكان مما قاله الجنرال الفرنسي بيير كيللر: "كانت التربية الوطنية بكاملها تقريبًا في أيدينا، وفي بداية الحرب العالمية الأولى 1914-1918م كان أكثر من اثنين وخمسين ألف تلميذ يتعلمون في مدارسنا، وكان من بينهم من ينتمون إلى عائلات إسلامية عريقة، مما جعل الجمعية المركزية السورية — التي تألفت في باريس- تعلن عام 1917م أن جميع ميول السوريين وعواطفهم تتجه نحو فرنسا؛ بعد أن تعلموا لغتها، وخبروها على مر الأجيال، وتأكدوا من إخلاصها وتجردها"(٧٢).

وانشأ اللورد كرومر - المندوب السامي البريطاني في مصر (١٨٨٢- ١٩٠٦)- كلية فيكتوريا في الإسكندرية التي قصد بها تربيه جيل من ابناء الحكام والزعماء والوجهاء في محيط انجليزي(٧٣). وامتدح المندوب السامي البريطاني الجديد في مصر اللورد لويد سنة 1936م صنيع سلفه اللورد كرومر؛ وأنه "ليس من وسيلة لتوطيد هذه الرابطة أفعل من كلية تعلم الشبان من مختلف الأجناس المبادئ البريطانية العليا"(٧٤).

أما في قلب الدولة العثمانية فقد تأسست مدرسة الليسيه العثمانية سنة 1868 في جالاتا سراي في اسطنبول، وكان معظم التدريس فيها باللغة الفرنسية، وقد قدر لخريجيها أن يقوموا بدور بارز في السياسة والمجتمع فيما تبقى من عمر الخلافة، وفيما سيأتي من عمر الجمهورية التركية فيما بعد، ثم تأسست عدة مدارس أجنبية منها كلية روبرت الأمريكية البروتستانتية سنة 1862.. "لقد كان النزوع نحو النهج الغربي في التعليم يسير ببطء، لكنه نفخ في المجتمع والدولة روحًا جديدة، ومع حلول القرن العشرين كانت قد أفرزت نخبة حاكمة تمتلك التصميم للقيام بثورة اجتماعية وسياسية هي التي أقامت تركيا الحديثة"(٧٥).

وعُنيت الكنائس الغربية بتأسيس مدارس للبنات في الشرق الإسلامي، ليضمنوا امتداد الأثر الاجتماعي العميق في الأجيال القادمة، وبخاصة في الأسر الأرستقراطية المؤهلة للنفوذ والحكم.. فكانت أول مدرسة للبنات في الدولة العثمانية في بيروت، سنة ١٨٣٠م، تلتها مدارس في مصر والسودان وسوريا والهند وأفغانستان وغيرها(٧٦)، ففي مصر كانت هناك كليتان للبنات سنة ١٩٣١ مهمتهما تخريج بنات الطبقات الراقية في

---

(٧٢) راجع د. محمد محمد حسين: **الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر**، (مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٧، ١٩٨٤م)، ٢/٢٨٥

(٧٣) د. محمد محمد حسين: الإسلام والحضارة الغربية ص ٤٥-٤٦

(٧٤) د. محمد محمد حسين: الاتجاهات الوطنية ٢/٢٨٦

(٧٥) راجع برنارد لويس: السابق ص ١٥٢، ١٥٧

(٧٦) د. مصطفى خالدي وعمر فروخ: **التبشير والاستعمار في البلاد العربية**، (المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، شباط سنة ١٩٥٣م)، ص ٨٧

المجتمع، وكان جميع المدرسين فيها من الأجانب[٧٧]، وتقول المُبَشِّرَةُ آن ميليغان: "لقد اِستطعنا أَن نجمع في صفوف كلية البنات في القاهرة بنات آباؤهن باشاوات وبكوات، ولا يوجد مكان آخر يمكن أن يجتمع فيه مثل هذا العدد من البنات المسلمات تَحْتَ النُّفُوذِ المسِيحِيّ، وبالتالي ليس هناك من طريق أقرب إلى تقويض حصن الإسلام من هذه المدرسة" [٧٨].

وتعددت كتابات العلماء المسلمين تحذر من خطورة مؤسسات التعليم الأجنبي، ودورها التنصيري والاستعماري، ومهمتها في سلخ أبناء المسلمين من دينهم وهويتهم، أو على أقل تقدير إضعاف سلطان ذلك عليهم[٧٩].

ومن هؤلاء الشيخ محمد عبده الذي حذر من خطر مؤسسات التعليم الأجنبي – وقد عاينها في أثناء وجود منفيًا في الشام بعد الثورة العرابية – وذكر من آثارها أن "المتعلمين فيها إما أن يخرجوا مسيحيين في الاعتقاد؛ مسلمين بالاسم، أو دهريين لا عقيدة لهم"[٨٠].

وصرخ محمد إقبال منبهًا إلى خطورة الدور التغريبي للتعليم الأجنبي، قائلاً على لسان قائد غربي يعلم ابنه دهاء المستعمر: ولا تبغِ بالسيف قهر المحكومين.. وألقِ بذاتك في حمض مناهج التعليم.. ثم شكِّل منها ما بلائم مرادك.. إن هذا الحمض بفوق في تأثيره الإكسير.. الذي يحول جبل الذهب إلى كومة تراب[٨١].

وقد تأكد المنصفون من النصارى من خطورة ذلك التعليم الأجنبي، وأنه مرقاة إلى تقبل الاستعمار الغربي، بل إلى طلبه ونشدانه، فأسماه جبران خليل جبران "خبز الصدقة"، الذي التهمناه "لأننا جياع متضورون، ولقد أحيانا ذلك الخبز، ولما أحيانا أماتنا" [٨٢].

---

[٧٧] سليمان: المرجع السابق ص ٢٦٣

[٧٨] مصطفى خالدي وعمر فروخ: المرجع السابق، ص ٨٧

[٧٩] راجع بكر بن عبد الله أبو زيد: **المدارس العالمية، الأجنبية الاستعمارية تاريخها ومخاطرها**، (دار ابن حزم ، دار ألفا للنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، سنة ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م)، ص ١٣-١٨، حيث أثبت ٦٤ كتابًا وبيانًا وتصريحًا من العلماء في ذلك.

[٨٠] محمد عبده: **الأعمال الكاملة للإمام الشيخ محمد عبده** ، تحقيق د. محمد عمارة، (دار الشروق، القاهرة، ط١، سنة ١٩٩٣م)، ١٠٣/٣

[٨١] محمد إقبال: **ديوان ضرب الكليم** ، ترجمة جلال السعيد الحفناوي، (نشر المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط١، سنة ٢٠٠٤) ص ١٣٧

[٨٢] **البدائع والطرائف**، (كلمات عربية للترجمة والنشر، القاهرة، ٢٠١٣م)، ص ٥٧-٥٨

معلمون أجانب في مدارس وجامعات العالم الإسلامي:

وفي ظل الاحتلال الأجنبي وجد المعلمون الأجانب فرصًا وافرة للتدريس في المدارس الوطنية، وبخاصة حين تفتقر البلاد إلى ذوي الكفاءات العلمية من أبنائها، كما حدث في وزارة المعارف المصرية التي وصل عدد الأجانب العاملين فيها إلى ١٩٢ أوروبيًا سنة ١٩٠٦، وظل المستشار البريطاني لوزارة المعارف دوجلاس دنلوب صاحب اليد العليا فيها، وكذا من أعقبه في وظيفته حتى سنة ١٩٢٢، وتولى المهمة من بعدهم مراقبون إنجليز للإشراف على مراحل التعليم للرجال والنساء[٨٣].

وتزايدت أعداد الأساتذة الأجانب في الجامعة المصرية (جامعة القاهرة فيما بعد) منذ تأسيسها سنة ١٩٠٨، فوصلت أعدادهم سنة ١٩٢٧ إلى ٣٢٪ من مجموع أساتذتها، وتركزت عنايتهم بالتدريس في كليتي الحقوق والآداب، وهما الكليتان اللتان تخرجان الساسة وأعضاء المجالس التشريعية والصحفيين والخطباء، من موجهي الرأي العام، فكانت أعدادهم في كلية الآداب ٤٥٪ من جملة الأساتذة الأجانب في الجامعة، وتنافس البريطانيون والفرنسيون في السيطرة على هاتين الكليتين[٨٤]. وكان بعضهم من أخطر المستشرفين مثل "**ماسينيون**" الفرنسي (ت ١٩٦٢م) الذي وجه جل عنايته إلى دراسة المذاهب المنحرفة عن الإسلام، والشخصيات المثيرة للجدل مثل الحلاج، وكان عضوًا نشطًا في دوائر المستعمرات الغربية[٨٥].

د) نزيف الكفاءات العلمية وضعف الإفادة منها:

تشير دراسات عائدة إلى سبعينات القرن الماضي إلى أن الوطن العربي يُساهم بنحو 31% من الكفاءات والعقول المهاجرة إلى الغرب من الدول النامية، كما أن نحو 50% من الأطباء و23% من المهندسين و15% من العلماء من مجموع الكفاءات العربية، يهاجرون إلى أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية وكندا

---

[٨٣] د. محمود محمد سليمان: **الأجانب في مصر ١٩٢٢-١٩٥٢، دراسة في تاريخ مصر الاجتماعي**، (عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ط١، سنة ١٩٩٦م)، ص ٢٥٦

[٨٤] المرجع السابق ص ٢٦٩-٢٧٠

[٨٥] راجع ترجمته عند د. عبد الرحمن بدوي: **موسوعة المستشرقين**، (دار العلم للملايين، بيروت، ط٣، سنة ١٩٩٣م)، ٥٢٩- ٥٣٥

بوجه خاص، وتوضِّح هذه الدراسات أن نحو 75% من الكفاءات العِلمية العربية مُهاجرة إلى ثلاث دول غربية هي: بريطانيا وأمريكا وكندا[٨٦].

وتزايد معدل هجرة العقول إلى الغرب بسبب اضطراب الأوضاع السياسية والاقتصادية والمجتمعية في العالم الإسلامي، مع توافر الإغراءات المالية والعلمية والاجتماعية في بلاد المهجر.

ويُعد التخصص الدقيق للكفاءات المهاجرة من المؤشرات الدالة على حساسية الظاهرة وأهميتها، سواء في بلدان الإرسال أم في بلدان الاستقبال[٨٧] .

ولنا أن نتصور حجم الجهود التي بذلت لتربية وتعليم هذه الألوف من العلماء ومشاريع العلماء، وتقديمها جاهزة للغرب، ومبلغ الخسارة التي تكبدها عالمنا الإسلامي بخسارة العطاء المنتظر من هؤلاء العلماء..

لقد أسهمت الاضطرابات السياسية والثورات الشعبية والانقلابات العسكرية والتدخلات الأجنبية في تفاقم أعداد الكفاءات العلمية المهاجرة إلى الغرب في الألفية الجديدة.. يضاف إلى تلك العوامل ضعف العوائد المالية، والميزانيات العلمية، وقد مرت بنا إحصائيات تظهر تهاوي الإنفاق على البحث العلمي، والتعليم بوجه عام، وظاهر للعيان اختلال أوجه الإنفاق العلمي مقارنة بما ينفق على منظومة الدفاع والأمن السياسي، والإنفاق الاستهلاكي ومظاهر الترف.. في مقابل ذلك نجد العوامل الجاذبة للعلماء في الغرب: كاحترامهم، والتقدير الأدبي والمادي لهم، وانفتاح أبواب الحياة الكريمة أمامهم، وتوفر ميزانيات البحث العلمي ووسائله، وأجواء الترقي العلمي وآفاقه.. وغير ذلك.

ولا يجوز الانصراف عن المخاطر التي تحتوش هؤلاء المبعوثين في بيئات ثقافية ومنظومات اجتماعية وتربوية تخالف القيم الإسلامية والميراث الاجتماعي الذي أَلِفه هؤلاء المبعوثون، فلا غرابة إذن أن نجد الانبهار الشديد بالغرب وحضارته، تمتزج مع النقمة البالغة على تردي الأوضاع في بلادنا، وتلك مشاعر متوقعة لدى

---

[٨٦] راجع د. أنطونيوس كرم: **العرب أمام تحديات التكنولوجيا** (عالم المعرفة- ٥٩، الكويت، سنة ١٩٨٢م)، ص١٠١، أنطوان زحلان: **هجرة الكفاءات العربية**، (مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط١، سنة ١٩٨٤)، ص ٢٣-٢٤

[٨٧] فمن بين الكفاءات المهاجرة من بلدان المغرب العربي حوالى ١٦٠٠ في المركز القومي للبحوث العلمية والجامعات والمعاهد الفرنسية، وهناك حوالى ٧٠٠٠ طبيب جزائري من أصل ١٠,٠٠٠ طبيب أجنبي في فرنسا، وهاجر ٧٠٪ من مجموع أساتذة معهد الرياضيات في الجزائر خلال العقد الأخير، وبلغ مجموع الكفاءات العليا المغربية المهاجرة إلى كندا حوالى ٢,٢٢٣ منها ١,٥٦٣ في مجالات مهمة، مثل هندسة المعلومات وعلوم التقنية وعلوم الإدارة والصحة. (اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغربي آسيا (الإسكوا): **تقرير السكان والتنمية العدد الثالث الهجرة الدولية والتنمية في المنطقة العربية: التحديات والفرص**، (الأمم المتحدة، نيويورك، سنة ٢٠٠٧)، ص٣٠

شباب لم يُحصنه العلم ولا التربية في بلده، ولم يدرك مزالق الحضارة الغربية، ولم تتكشف أمام ناظريه سوءاتها، وجنايات الغرب الاستعماري على بلاده، وأنه كان أهم أسباب نكباتها، وأن التخلف العلمي الذي تعانيه بلاده هو نتيجة منطقية لسياسات الغرب ووكلائه تجاهها.

ولا شك أن توليد وتغذية وترسيخ هذه المشاعر والأفكار لدى المبتعَثين من بلاد الإسلام كان عملاً غربيًا مخططاً له. ولنا أن نستحضر هنا مقولة المستشرق الفرنسي ماسينيون: "إن الطلاب الشرقيين الذين يأتون إلى فرنسا يجب أن يُلوَّنوا بالمدنية المسيحية"[٨٨].

ويزداد الأمر سوءًا إذا علمنا أن كثيرًا من هذه الكفاءات لا تجد لها مكانًا مناسبًا في الغرب، فتضطر إلى الرضا بما لا ترضاه في بلدها، فقد تمكن ٤٧ % من المهاجرين من تونس و ٤٣ % من مصر من الحصول على مهن تناسب مهاراتهم[٨٩]، مما يعني أن أكثر من نصف هذه العقول المهاجرة تعجز عن تحقيق طموحات تناسبها في الوطن الأم والمهجر على السواء.

ولا ينبغي أن ينصرف الذهن إلى أننا نقف أمام التلاقح الفكري بين الشرق والعرب، أو التعاون العلمي بينهما، أو ننكر دور هجرات العلماء عبر التاريخ في النقل الحضاري والتقدم الإنساني، وقد كان لأمة الإسلام دور مشهود في نقل الحضارة إلى الغرب في العصر الوسيط، وكانت هجرات العلماء المسلمين ورحلاتهم بين مختلف شعوبهم وأوطانهم في دولة الإسلام الواحدة إحدى مسارات العلم المحمودة في زمانهم، ولكننا ننكر التفريغ المنهجي المتعمد للأمة من علمائها بالترغيب المادي والأدبي لمن يستجيب منهم، أو القتل والاغتيال لمن يمثل خطرًا على المشروع الغربي والصهيوني، أو يتمنع عن التماهي فيه.. والأمثلة على ذلك تطول.

وينبغي ألا نسرف في لوم هذه العقول المهاجرة، ونشكك في صدق ولائها الوطني أو الديني، فمن الإنصاف أن نتشكك في أن يكون لتلك العقول المهاجرة تأثير إيجابي في البلاد التي هاجرت منها فيما لو بقيت فيها، إذ سيكون مآلها الانكماش والعطالة؛ كالعقول التي لم تهاجر، وذلك بحسبان أنّ المناخ العامّ في تلك البلاد غير مساعد على الانطلاق في سبيل الريادة والابتكار والعطاء، وهو ما كان أحد أسباب هجرتها إلى بلاد يتوفّر فيها ذلك المناخ[٩٠]. كما أنّ هذه الكفاءات تبحث عن الفضاء الذي تجد فيه أقدارا من

---

[٨٨] خالدي، مصطفى وفروخ، عمر: **التبشير والاستعمار في البلاد العربية**، (المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، شباط سنة ١٩٥٣م)، ص ٨٩

[٨٩] الإسكوا: مرجع سابق ص ٣٠

[٩٠] د. عبد المجيد النجار و د. محمد الغمقي و د. محمد المستيري: **البعد الحضاري لهجرة الكفاءات**، (كتاب الأمة العدد ٨٩، جمادى الأولى ١٤٢٣هـ ـ أيلول (يوليو) – آب (أغسطس) ٢٠٠٢م)، ص ٤٤

الاحترام لعلمها وضمان كرامتها والاعتراف بجميلها. حيث يشعر أصحاب هذه الكفاءات في كثير من الحالات بالغربة داخل الوطن[٩١].

ويشير بعض الناصحين إلى ضرورة الإفادة من ظاهرة هجرة العقول إلى خارج العالم الإسلامي، وبخاصة إزاء العجز عن منعها أو ترشيدها، ويرون بحق أنها من الممكن أن تقوم بدور حضاري في بلاد المهجر، من حيث تصحيح المفاهيم والتصوّرات الخاطئة عن الإسلام والمسلمين سواء لدى عامة الناس، أو مع المراكز البحثية ودوائر اتخاذ القرار، والدفاع عن قضايا العالم الإسلامي وحقوقه، وترشيد أداء الجاليات المسلمة هناك، فضلاً عن القيام بالفريضة الدينية والبعد الرسالي المنفتح على تلك المجتمعات[٩٢].

وقد استطاعت بعض الدول الإفادة من الكفاءات المهاجرة منها عن طرق شتى، منها دعوتها إلى المؤتمرات العلمية بالداخل، أو ألقاء محاضرات في جامعاتها، أو تنفيذ برامج علمية بين المراكز البحثية في الوطن الأم والجامعات والمراكز التي يعمل بها العلماء المهاجرون، وبناء شبكات بحثية عالية المستوى بين علماء الداخل والمهجر، أو استقدام بعض تلك الخبرات الكبيرة لتولي وظائف قيادية في مشروعات ومؤسسات التنمية بالداخل، وقد قامت بعض الأقطار مثل ماليزيا وتركيا ولبنان والمغرب العربي بمحاولات ناجحة في ذلك المجال[٩٣]

هـ) الحصار العلمي الغربي للعالم الإسلامي:

تواصلَ العداءُ الغربي للعالم الإسلامي على مر العصور، وإن عبَّر عن نفسه في كل عصر بما يناسبه، ولم يستطع الغرب الذي أعلن انتهاء سيطرة الكنيسة على السياسة والحياة العامة أن يتخفف من هواجسه تجاه الإسلام، وعدائه له، وبخاصة أنه وجده أقوى الموانع في طريق سيطرته الاستعمارية على الشرق، واتضح ذلك في تصريحات عديدة لقادة الغرب ومفكريه، منها ما قاله جلادستون –رئيس وزراء بريطانيا السابق (١٨٠٩–١٨٩٨)–: "ما دام القرآن موجوداً فلن تستطيع أوروبا السيطرة على الشرق، ولا أن تكون هي نفسها في أمان"[٩٤].

---

[٩١] المرجع السابق، ص ٧٧

[٩٢] المرجع السابق ص ٨١

[٩٣] راجع الإسكوا: مرجع سابق ص ٣١–٣٤

[٩٤] محمد أسد: **الإسلام على مفترق الطرق**، ترجمة د. عمر فروخ، (دار العلم للملايين، بيروت، سنة ١٩٨٧م)، ص ٤١

والدلائل واضحة على حرص الغرب على حجب التقنية العالية والعلوم المؤثرة بقوة في التقدم العلمي للمسلمين، وتدمير ما قد يفلت من حبائله وحصاره، ويحقق شيئًا من التقدم العلمي، ومن ذلك تدمير الكيان الصهيوني المفاعل النووي العراقي سنة ١٩٨١ لحرمان العراق من السلاح النووي، وما قامت به أمريكا والغرب من حصار للعراق، ثم شن عدوان عليه حشدت له أكثر من ثلاثين دولة بحجة منعه من إنتاج السلاح الكيميائي والنووي.

وكذلك تلك الجهود الغربية التي بذلت لمنع الباكستان المسلمة من إنتاج قنبلتها النووية، ثم معاقبة باكستان بعد نجاح جهودها وإنتاج قنبلتها، وإجراء تجاربها النووية سنة ١٩٩٨.

يحدث هذا في الوقت الذي يغض فيه الغرب الطرف عن التقدم النووي لإسرائيل، وما أنتجته بالفعل من قنابل نووية لم يتم الإعلان عنها، وأكدتها المنظمات البحثية العالمية.. وما حدث بالفعل من تراخٍ في مواجهة المشروع النووي الهندي حتى أنتجت الهند قنبلتها النووية بالفعل سنة ١٩٩٨م.

ناهيك عن استهداف الكفاءات العلمية العربية والإسلامية بالفتل المنظم والاغتيالات الممنهجة لأسباب سياسية وطائفية؛ كما حدث في حالات علماء العراق وسوريا ومصر وفلسطين وليبيا واليمن.

فلا مرية في أهمية البحث عن وسائل لاختراق ذلك الحصار العلمي، مع المحافظة على علماء المسلمين من الأخطار المحدقة بهم، وقد نجحت بعض الدول الإسلامية في ذلك حين توفرت فيها الإرادة السياسية، فأنتجت باكستان قنبلتها النووية، وحافظت على علمائها العاملين في مجالها، غير أنها لم تواصل السعي لتحقيق نهضة علمية شاملة، وقطعت ماليزيا وتركيا شوطًا في إحراز تقدم تقني واقتصادي.

الخاتمة

تناول هذا البحث في مقدمته مظاهر التخلف العلمي في العالم الإسلامي، وأهمها تفشي نسبة الأمية، وتراجع مستوى القراءة لدى المتعلمين، وتدني ترتيب الجامعات الإسلامية على المستوى العالمي، وكذا أعداد براءات الاختراع، والحاصلين على جوائز نوبل، ومن أبرز تلك المظاهر والأسباب معًا فقر الميزانيات المرصودة للبحث العلمي.

وفي المبحث الأول تناول البحث المعوقات الفكرية التي تعرقل – أو تحول دون – النهوض العلمي، وهي تعود بشكل أساس إلى سوء فهم الموروث الديني العظيم للأمة، ومن ذلك اختلال التوازن بين العناية بالعلوم النظرية والعلوم التجريبية العملية، حيث جرى غالبًا إيثار الأولى لأسباب شتى، ومنها الدعوة إلى إغلاق باب الاجتهاد الفقهي، اكتفاءً بالاجتهادات الحاصلة في أزمانها، أو شفقة من مزالق الاجتهاد في أجواء فكرية مهزومة ومأزومة تعيشها الأمة في حاضرها، ومن ذلك خطأ النظر إلى مفهومي الابتداع والإبداع، وسوء الظن في مساراتهما، حتى وجدنا المماليك يحرمون استعمال البارود والبنادق في حربهم ضد العثمانيين، ووجدنا العثمانيين يتوجسون من استعمال المطابع الحديثة، فيتأخر عملها مدى حين.

وعرض المبحث الثاني للمعوقات السياسية والاجتماعية للنهوض العلمي، وتمثل ذلك في سوء الإدارة السياسية لقضايا التعليم، بقلة الإنفاق، واختلال الأولويات، وزاد الطين بلَّة بإعاقة الساسة مشاركة الأوقاف ومؤسسات المجتمع المدني في تطوير التعليم والبحث العلمي، في حين نجد نظير تلك المشاركة تنهض بأدوارها في المجتمع الغربي. ومن ذلك ما عانته مجتمعاتنا من اضطراب الهوية الإسلامية بعد الانفتاح الكبير على الغرب؛ سواء في البعثات العلمية أو استجلاب أساتذة غربيين إلى بلادنا، أو تأسيس معاهد علمية غربية في ديار المسلمين، وكذا في الاستسلام للمخططات الغربية التي أدت إلى نزيف العقول الإسلامية التي أغوتها مدنية الغرب، وعجز العالم الإسلامي عن الإفادة منها كليًا أو جزئيًا، مع ما يفرضه الغرب من حصار علمي على العالم الإسلامي، لضمان زيادة الهوة معه، وفرض التخلف عليه.

النتائج والتوصيات

خلص البحث إلى عدة نتائج أهمها: إن التخلف العلمي قد ضرب أطنابًا في العالم الإسلامي، وأن معالجة أسبابه أصبحت ضرورة لا غنى عنها.

ومن أبرز هذه المعالجات الواجبة – التي يوصي البحث بالسير فيها– تصحيح النظر إلى موروثنا الإسلامي المتصل بالموضوع، سواء في النظر إلى العلوم الكفائية على أن بعضها أشرف من بعض، أو النظر إلى الإبداع

في مجالات الحياة على أنه بدعة وضلالة، أو الدعوة للاكتفاء باجتهادات فقهية كانت صالحة لزمانها، وغدت جديرة بمواكبة مستجدات الأمور، والبحث في إشكاليات لم تنطرح بين أيدي علمائنا السابقين.

ومن شرائط النهوض تجاوز العقبات السياسية والاجتماعية التي تسد آفاق ذلك النهوض، بحيث يصبح الإصلاح لسياسي واجبًا، لتتزايد فضاءات الحرية السياسية والعلمية، والمشاركة الاجتماعية، فإن أنفاس البحث العلمي الرشيد مرهونة بمناخات الحرية. وليكون العلماء هم قاطرة التنمية والنهوض، فلا يوسد الأمر إلى غير أهله. ونُفتح السبل أمامهم للترقي الاجتماعي والمادي، مع تعميق الهوية الإسلامية لديهم؛ لتزيد مناعتهم أمام مغريات البقاء في الجامعات الأوروبية، أو النزوح إليها.

وكذا تشجيع المشاركة المجتمعية في الاستثمار في البحث العلمي، سواء من خلال الأوقاف الإسلامية التي نهضت بالتعليم في عصور الإسلام الزاهية، أو من خلال مؤسسات المجتمع المدني التي ترى لها دورًا رساليًا في إنهاض الأمة، أو تطمح إلى تقاسم عوائد النهوض العلمي حين حدوثه.

ومن ذلك التصدي للحصار العلمي المفروض على الأمة من خارجها، وخلق مساحات من التشارك العلمي الذي يستهدف إنهاض البشرية وإسعادها.

المصادر والمراجع

آربري، أ. ج.: **المستشرقون البريطانيون**. تعريب محمد الدسوقي النويهي. (لندن: وليم كولينز، ١٩٤٦

أسد، محمد: **الإسلام على مفترق الطرق**، ترجمة د. عمر فروخ، دار العلم للملايين، بيروت، سنة ١٩٨٧م

أرسلان، شكيب: **تاريخ الدولة العثمانية**، دار ابن كثير، دمشق، ط١، سنة ٢٠١١

إقبال، محمد: **ديوان ضرب الكليم** ، ترجمة جلال السعيد الحفناوي، نشر المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط١، سنة ٢٠٠٤

أمين، أحمد: **زعماء الإصلاح في العصر الحديث**، دار الكتاب العربي، بيروت، (د. ت)

إينالجيك، خليل: **تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار** ، ترجمة د. محمد م. الأرناؤوط، دار المدار الإسلامي، بني غازي، ليبيا، ط١، سنة ٢٠٠٢م

البخاري، محمد بن إسماعيل الجعفي (ت ٢٥٦هـ): **صحيح البخاري**، تحقيق د. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، دار اليمامة، دمشق، ط ٥، سنة ١٤١٤هـ/١٩٩٣م

بدوي، د. عبد الرحمن: **موسوعة المستشرقين**، دار العلم للملايين، بيروت، ط٣، سنة ١٩٩٣م

البغدادي، الخطيب: **الفقيه والمتفقه**، تحقيق أبو عبد الرحمن عادل بن يوسف الغرازي، دار ابن الجوزي، السعودية، ط٢، سنة ١٤٢١هـ

البنا، حسن: **مجموعة رسائل الإمام البنا**، البصائر للبحوث والدراسات، ط٢، سنة ٢٠١٠

البهي، محمد: **الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي**، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٨، سنة ١٩٧٥م

التونسي، خير الدين: **أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك**، مؤسسة هنداوي، القاهرة، سنة ٢٠٢٢

توينبي، أرنولد: مختصر **دراسة للتاريخ**، ترجمة فؤاد محمد شبل، المركز القومي للترجمة، القاهرة، سنة ٢٠١١

جب: **وجهة الإسلام**، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة، طبعة جامعة لندن، سنة ١٩٣٣م

جبران، جبران خليل جبران: **البدائع والطرائف**، دار نشر كلمات عربية للترجمة والنشر، القاهرة، ٢٠١٣م

الجبرتي، عبد الرحمن بن حسن بن إبراهيم (ت ١٢٤٠هـ): **تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، دار الجيل، بيروت، (د. ت)

ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي بن محمد بن علي (ت٨٥٢هـ) : **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**، دائرة المعارف العثمانية – حيدر آباد، ١٩٩٣م

: **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، المكتبة السلفية (د. ت)

حسين، محمد محمد: **الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر**، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٧، ١٩٨٤م

: **الإسلام والحضارة الغربية** ، دار الفرقان، القاهرة، (د. ت)

خالدي، مصطفى وفروخ، عمر: **التبشير والاستعمار في البلاد العربية**، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، شباط سنة ١٩٥٣م

ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن محمد (ت ٨٠٨هـ): **تاريخ ابن خلدون**، تحقيق خليل شحاتة، دار الفكر، بيروت، ط١، سنة ١٩٨١م

أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني (ت ٢٠٥هـ)، **سنن أبي داود**، تحقيق شعيب الأرنؤوط ومحمد كامل قره بللي، مؤسسة الرسالة العالمية، بيروت، ط١، سنة ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م

الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز (ت ٧٤٨هـ): **معجم شيوخ الذهبي**، تحقيق روحية عبد الرحمن السيوفي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٠.

الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد (ت ٥٠٢هـ): **المفردات في غريب القرآن**، تحقيق صفوان عدنان الداودي، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، ط١، سنة ١٤١٢

ابن رجب الحنبلي، عبد الرحمن بن أحمد بن رجب السلامي (ت ٧٩٥هـ): **جامع العلوم والحكم**، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٧، سنة ٢٠٠١م

رضا، محمد رشيد: **الخلافة**، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، سنة ٢٠١٢م

زحلان، أنطوان: **هجرة الكفاءات العربية**، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط١، سنة ١٩٨٤

الزحيلي، محمد مصطفى: **الوجيز في أصول الفقه الإسلامي** ، دار الخير للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق ، ط2، سنة 1427هـ /2006 م

ابن زنبل الرمال، أحمد بن علي بن أحمد (ت بعد ٩٨٠هـ): **آخرة المماليك**، تحقيق عبد المنعم عامر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط٢، سنة ١٩٩٨م

أبو زيد، بكر بن عبد الله: **المدارس العالمية، الأجنبية الاستعمارية تاريخها ومخاطرها**، دار ابن حزم ، دار ألفا للنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، سنة ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م

زين العابدين، بشير: **الجيش والسياسة في سوريا ١٩١٨–٢٠٠٠**، دراسة نقدية ، دار الجابية، ط١، سنة ٢٠٠٨م

السخاوي، محمد بن عبد الرحمن بن محمد (ت ٩٠٢هـ): **الضوء اللامع لأهل القرن التاسع**، دار الجبل، بيروت، ط١، ١٩٩٢،

: **"المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المنتشرة على الألسنة"**، تحقيق د. محمد عثمان الخشت، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، سنة ١٩٨٥م

سعيد، إدوارد: **الاستشراق، المفاهيم الغربية للشرق**، ترجمة د. محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، سنة ٢٠٠٦م،

سليمان، محمود محمد: **الأجانب في مصر ١٩٢٢–١٩٥٢**، دراسة في تاريخ مصر الاجتماعي، عيد للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ط١، سنة ١٩٩٦م

شاتليه (أ. ل.): **الغارة على العالم الإسلامي**، ترجمة مساعد إليافي ومحب الدين الخطيب، منشورات العصر الحديث، جدة، ط٢، سنة ١٣٨٧هـ

شاكر، محمود محمد: **رسالة في الطريق إلى ثقافتنا**، (الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ضمن مكتبة الأسرة سنة ١٩٩٧م)،

الطبري ،محمد بن جرير: **تاريخ الرسل والملوك**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، سنة ١٤٠٧هـ.

عبد العزيز د. زينب: **مائتا عام على حملة المنافقين الفرنسيس**، (د. ن)، سنة ١٩٩٨

عبد الوهاب المسيري: **من هم اليهود؟ وما هي اليهودية؟ أسئلة الهوية وأزمة الدولة اليهودية**، دار الشروق، القاهرة، ط٦، سنة ٢٠٠٩.

عبده، محمد: **الأعمال الكاملة للإمام الشيخ محمد عبده**، تحقيق د. محمد عمارة، دار الشروق، ط١، سنة ١٩٩٣م

عوض، أحمد حافظ: **فتح مصر الحديث، أو نابوليون بونابارت في مصر**، مطبعة مصر، سنة ١٩٢٥)

الغزالي، محمد بن محمد الغزالي الطوسي (ت ٥٠٥هـ): **مقاصد الفلاسفة** ، تحقيق سليمان دنيا، دار المعارف القاهرة، ١٩٦١

المنقذ من الضلال، تحقيق د. عبد الحليم محمود، نشر دار الكنب الحديثة، القاهرة،

فاتحة العلوم، المطبعة الحسينية، القاهرة، ط١، سنة ١٣٢٢هـ

القاسمي، محمد جمال الدين: **محاسن التأويل**، تحقيق محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، سنة ١٤١٨هـ،

ابن قدامة، عبد الله بن أحمد بن محمد المقدسي (ت ٦٢٠هـ): **المغني**، مكتبة القاهرة، القاهرة، (د.ت)

القرافي، أحمد بن إدريس الصنهاجي (٦٨٤هـ): **الفروق (أنوار البروق في أنواء الفروق)**، عالم الكتب، (د.ت)

كاريه، جون ماري: **مختارات من كتاب رحالة وأدباء فرنسيون في مصر**، ترجمة د. سونيا مجا ود. رشا صالح، مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، الكويت، ط١، سنة ٢٠٠٦م

كرم، أنطونيوس: **العرب أمام تحديات التكنولوجيا** (عالم المعرفة– ٥٩، الكويت، سنة ١٩٨٢م).

اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغربي آسيا (الإسكوا): **تقرير السكان والتنمية العدد الثالث الهجرة الدولية والتنمية في المنطقة العربية: التحديات والفرص**، (الأمم المتحدة، نيويورك)، سنة ٢٠٠٧

لويس، برنارد: **ظهور تركيا الحديثة**، ترجمة قاسم عبده قاسم وسامية محمد، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط١، سنة ٢٠١٦م

محفوظ، علي: **الإبداع في مضار الابتداع** ، مكتبة الرشد، الرياض، ط١، سنة ٢٠٠٠م

مرسي، أحمد منير: **التربية الإسلامية أصولها وتطورها في البلاد العربية**، عالم الكتب سنة ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م

مركز الأبحاث الإحصائية والاقتصادية والاجتماعية والتدريب التابع لمنظمة التعاون الإسلامي (sesric): **التعليم والتنمية العلمية في الدول الأعضاء في منظمة التعاون الإسلامي ٢٠١٦ م**

المودودي، أبو الأعلى: **نحن والحضارة الغربية**، دار الفكر، دمشق، (د. ت)

بن نبي، مالك: **شروط النهضة**، ترجمة عبد الصبور شاهين وعمر مسعاوي، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، دمشق، سنة ١٩٨٦م

النجار، زغلول: **مشكلة التخلف العلمي في العالم الإسلامي**، مقال منشور على موقع مداد، على الرابط https://cutt.us/45IlF

النجار، عبد المجيد، والغمقي، محمد ، والمستيري، محمد: **البعد الحضاري لهجرة الكفاءات**، كتاب الأمة العدد ٨٩، جمادى الأولى ١٤٢٣هـ ـ أيلول (يوليو) – آب (أغسطس) ٢٠٠٢م

نزهت، سليم: **تاريخ الطباعة في تركيا ١٧٢٩–١٩٢٩م**، ترجمة وتعليق سهيل صابان، نشر مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض ، ١٤١٣هـ

أبو نعيم، أحمد بن عبد الله الأصبهاني (ت ٤٣٠هـ): **حلية الأولياء**، مطبعة السعادة بمصر، سنة ١٩٧٤م

نور الدين، زين: **نشوء القومية العربية مع دراسة تاريخية في العلاقات العربية التركية**، دار النهار للنشر، بيروت، ط٤، سنة ١٩٨٦م

النيسابوري، مسلم بن الحجاج القشيري (ت ٢٦١هـ) **صحيح مسلم**، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، سنة ١٣٧٤هـ/ ١٩٥٥م

وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بالكويت: **الموسوعة الفقهية**، دار السلاسل، الكويت، ط٢، سنة ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م

رُوشه، خالد: **أزمة الهوية الإسلامية**، مقال بموقع المسلم، ١٨ ذو الحجة ١٤٢٩هـ، ورابطه: https://almoslim.net/node/103661

عبد الله، طارق: **هارفارد وأخواتها، دلالات الوقف التعليمي في الولايات المتحدة الأمريكية**، مقال بمجلة أوقاف، العدد ٢٠. السنة ١١

غانم، إبراهيم البيومي: **تحولات العلاقة بين الأوقاف والتعليم العالي في مصر الحديثة**، (مجلة أوقاف، الأمانة العامة للأوقاف، الكويت، العدد ٢٠، السنة ١١، جمادى الأولى ١٤٢٢هـ/مايو ٢٠١١م)

بن مولود، وثيق، وجيدان، عمار : **وقفات مع رسالة الاجتهاد للأستاذ النورسي**، النور للدراسات الحضارية والفكرية،2013 ، على الرابط:

; .NUR Academic Studies on Thought and Civilization)7(7

الوزاني، حسن: **تحريم الطباعة**، مقال بجريدة العرب، بتاريخ ٢٣ يوليو ٢٠١٦م

Leah Caldwell,**The Arab Reader and the Myth of Six Minutes**, an article on: http://www.pcp.ps/article/156/The-Arab-Reader-and-the-Myth-of-Six-Minutes.

"**أكثر من ٩٦ مليون أمي بالوطن العربي**"، تقرير موقع الجزيرة الإخباري وعنوانه على الرابط: https://cutt.us/G5Clw

"**الإنفاق على البحث والتطوير % من إجمالي الناتج المحلي**"، تقرير منشور على موقع البنك الدولي. على الرابط الآتي،

https://data.albankaldawli.org/indicator/GB.XPD.RSDV.GD.ZS

الطباعة في العهد العثماني.. بين الافتراءات والحقيقة، موقع ترك برس، على الرابط:
https://www.turkpress.co/node/43195

"**العربي لا يقرأ سوى ربع صفحة سنويًا**" دراسة على موقع الجزيرة الإخباري عنوانها على الرابط:
https://cutt.us/AZ3YO

"**نصف سكان العالم الإسلامي أميون**" تقرير موقع الجزيرة الإخباري: على الرابط الآتي
https://cutt.us/tw4ar